الموسوعة الصغيرة

٣٦٨

نظرات في شعر صدر الاسلام

تأليف
الدكتور سامي مكي العاني

الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية تتناول مختلف العلوم والفنون والآداب
تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة

رئيس التحرير موسى كريدي سكرتير التحرير ماجد اسد

١٩٩٢

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

العراق ـ بغداد / اعظمية ص.ب ٤٠٣٢ ـ تلكس ٢١٤١٣
هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة

تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان :
العراق ـ بغداد ـ اعظمية
ص. ب. ٤٠٣٢ ـ تلكس ٢١٤١٣ ـ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

الموسوعة الصغيرة
[٣٦٨]

نظرات في شعر صدر الاسلام

تأليف :

الدكتور سامي مكي العاني

تمهيـد :

من المعروف ان النقلة التي أحدثها الاسلام في الحياة العربية بكل جوانبها كان لها أعمق الاثر وأكبره في الشعر العربي آنذاك .

ولا غرابة في ذلك لان الشعر يصور حياة المجتمع في كل زمان ومكان ، ويعبّر عن أفكار الناس وعواطفهم وأخيلتهم .

وقد قامت الدراسات المتعددة التي تحاول تلمّس أثر الاسلام في أغراض الشعر العربي وخصائصه الفنية واتجاهاته .

وقد لا يستغني القارىء العربي عن الاطلاع على أشعار تلك الحقبة المبكرة من حياة الشعر العربي ، الذي تعد كتب السيرة النبوية من أبرز مصادره ، بعد

أن عدا الزمن على اكثر دواوينها الشعرية • ولم يحتفظ الا بالعدد اليسير منها ، لعل في طليعتها ديوان حسان ابن ثابت الانصاري ، الذي كان شاعر الاسلام الاول ، وديوانه أصدق وثيقة لالقاء الضـوء على سـيرتـه وسجاياه •

كما قد لا يستغني القارىء عن النظر في موقف الشعر من الاحداث التي كان لها أثر كبير في حيـاة المجتمع آنذاك ، كحروب التحـرير ، والفتوحـات الاسلامية ، والهجرة النبوية ، وعام الوفود •

ومن هنا كانت هذه النظرات في بعض جـوانب الشعر ومصادره في تلك الحقبة الزاهرة والزاهية من عمر الدولة العربية الاسلامية • فالشعر ديوان العرب وسجل مفاخرها •

« دراسة في شعر السيرة النبوية »

لابــن اسحق

تحدث الكثير من الباحثين عن محمد بن اسحق وسيرته ضمن حديثهم عن السيرة النبوية او الحديث النبوي او التاريخ الاسلامي . وقد عرض الدكتــور عبدالعزيز الدوري في تمهيد دراسة سيرة النبي (ص) ومؤلفها ابن اسحق ، لأبرز تلك الدراسات التي كتبها الباحثون العرب والاجانب . وتباينت النتـــائج التي توصل اليها أولئك الباحثون ومع ذلك لم يخص أحد منهم جانب الشعر في السيرة بدراسة خاصة وهو من أهم مواد السيرة ، ولذلك رأيت أن أعالج هذا الجانب بعد تمهيد يعرف بمؤلف السيرة محمد بــن اســحق ومهذبها ابن هشام ، وحاولت ابراز قيمة الكتاب ثــم أوضحت دور ابن هشام فــي تهذيــب وتوثيــق شــعر السيرة .

ابن اسحق

محمد بن اسحق بن يسار بن خيار ويقال كوثان المديني ، كنيته أبو عبدالله ، وقيل أبو بكر • ويسار جده من سبي عين التمر في العراق عام (١٢ هـ) الذين بعث بهم خالد بن الوليد الى الخليفة أبي بكر بالمدينة • وهو أول سبي دخل المدينة من العراق ، أعتق بعد اعتناقه الاسلام •

قيل في مولده انه ولد حوالي (٨٥هـ) في المدينة ، لأن جميع الرواة الذين أخذ عنهم مباشرة توفوا بعد عام (١٠٠هـ) ، ولانه لم يُذكر بين رواته جماعة من أشهر المحدثين المدنيين الذين توفوا في العام التسعين من الهجرة •

اما وفاته فقد حصرها الرواة ما بين سنتي (١٥٠هـ و١٥٣هـ) ودفن في مقابر الخيزران عند قبر أبي حنيفة في بغداد •

نشأ ابن اسحق في المدينة ، وفيها بـدأت بوادر اهتمامه بالحديث وروايته ، فقد ترعرع في أسرة عرف معظم رجالها برواية الحديث ، فكان أبوه مـن الرواة المعروفين ، روى عن عروة ومقسم وغيرهما . وروى عنه كثير غير ابنه محمد الذي روى عنه في مواضع عدة من كتابه السيرة النبوية ، فيقول : حدثني ابي اسحق بن يسار . وعمه موسى عرف برواية الحديث ، وروى عنه أيضا ، وأخواه عمر وابو بكر رويا الحديث أيضا . في هذا الوسط العلمي نشأ ابن اسحق ثم خرج الى أكثـر الاوساط العلمية المعروفة في زمانه ، فاتصل في دراساته بالمحدثين وأهل الكتاب والرواة والقصاص ، واخـذ عنهم ، وقد بلغ عدد الرواة الذين أخذ عنهم مائة راوٍ من المدينة وحدها .

وعرف في شبابه بالميل الى اللهو ، فقد روي أنـه كان يسامر النساء ، فرفع أمره الى أمير المدينة ، وكانت له شعرة حسنة ، فرقق رأسه ، وضربه أسواطا .

وترك ابن اسحاق المدينة متنقلا بين اكثر من بلد ، مبتدئا بالاسكندرية ، حيث وفد عليها عام (١١٥هـ) ، وزار الحيرة والكوفة والري ، ثم نزل بغداد حيث تزوج بها ، وظل مقيما فيها ، الى ان توفي ، ودفن في مقابر الخيزران ، كما مرّ بنا .

وثمة روايات تشير الى ظروف نزوحه عن المدينة ، وعدم الاقامة فيها ، فقد عاداه اثنان من أكبر اعلام عصره فيها ، هما هشام بن عروة بن الزبير ، ومالك بن أنس . ويروي المؤرخون ان عداوة هشام له ترجع الى أن ابن اسحق كان يروي عن فاطمة بنت المنذر زوجة هشام ، فبلغ ذلك هشاما فأنكره ، وقال : أهو كان يدخل على امرأتي .

ويروى أنه قيل لهشام : ان ابن اسحاق يحدث بكذا وكذا عن فاطمة . فقال : كذب الخبيث .

وزاد بعضهم : العدو لله الكذاب يروي امرأتي؟ من أين رآها ؟

ورد عبدالله بن أحمد بن حنبل على هذا القول بقوله : حدثت أبي بذلك فقال : وما ينكر لعله جـاء فاستأذن عليها فأذنت له ، أحسبه قال : ولـم يعلم . والمعروف ان روايه الرجال عن النساء لم تكن غريبة ، فقد كان الرجال يروون عنهن من وراء حجاب .

أما موقف مالك بن أنس منه فلايمان ابن اسحاق بالقدر . قال أبو زرعة : ان دحيمـا المتـوفى سـنة (٢٤٥هـ) صرّح له بأن سبب خصومة مالـك لابـن اسحاق آراؤه في القدر . ومما يؤيد هذه الخصومة ما رواه عبدالله بن ادريس تلميذ ابن اسحق ، قال : كنت عند مالك بن أنس فقال له رجل : ان محمد بن اسحق يقول :اعرضوا عليّ علم ما لك بن أنس ، فأني أنا بيطاره ، فقال مالك ! انظروا الى دجال من الدجاجلة يقول اعرضوا عليّ علم مالك . وربمـا كان السبب الرئيس لهذه الخصومة هو اسلوبه ونظرته في دراسـة السيرة والحديث ، اذ انه لم يلتزم بأسلوب المحدثين في

دراسته وكتابته ، وانه خرج بذلك عن تقاليد الدراسة وأسسها في المدينة حين جمع معلومات من مصادر بعضها مشكوك فيه بنظر أهل المدينة ، وهذا بدوره يُفسر موقفهم السلبي من مغازيه •

وقد ناقش ابن سيد الناس آراء هشام ومالك في ابن اسحق ، وفنّد أقوالهما واتهاماتهما • وأشاد المؤرخون بفضل ابن اسحق وأثنى عليه العلماء ، قال سفيان بن عيينة انه سمع ابن شهاب الزهري يقول : لا يزال بالمدينة علم ما بقي هذا • يعني ابن اسحاق •

وروى ابن أبي ذئب عن الزهري انه رآه مقبلا فقال : لايزال بالحجاز علم كثير ما بقي هذا الاحول بين أظهرهم •

وروى يونس بن بكير عن شعبة : محمد بن اسحق أمير المحدّثين ، وقيل له : ولم ، قال : لحفظه •

وقال ابن المديني : مدار حديث رسول الله (ص)، على ستة ، فذكرهم ثم قال : وصار علم الستة عند اثنى عشر ، أحدهم ابن اسحاق •

وصفه البستي فقال : كان من أحسن الناس سياقا للأخبار ، وأحفظهم لمتونها ، ممن عني بعلم السنن ، وواظب على تعاهد العلم ، وكثرت عنايته فيه ، وجمعه له على الصدق والاتقان .

أما مؤلفاته فتذكر المصادر بأنه كتب « سيرة الخلفاء » رواها عنه الاموي ، وكتب كتابه الشهير « المبتدأ والمبعث والمغازي » وهو الكتاب الذي سمي فيما بعد السيرة النبوية .

أهمية كتاب السيرة :

يعد كتاب ابن اسحاق « المغازي » أول كتاب في السيرة النبوية يصل الينا فجميع ما ألف قبله من كتب السيرة ، قد فقد .

فأول من عرف بتدوين مغازي رسول الله (ص) أبان بن عثمان بن عفان المتوفى في آخر القرن الاول . ثم عروة بن الزبير بن العوام المتوفى في سنة (٩٤هـ) ثم وهب بن منبه المتوفى في سنة (١٢٣ هـ) ثم شرحبيل بن

سعد مولى بني خطمة المدنيين المتوفى في سنة (١٢٣ هـ) وبعد هؤلاء العلماء الاربعة الذين كانوا من جيل القرن الاول يأتي شيوخ محمد بن اسحاق من التابعين ، وهم : عبدالله بن أبي بكر بن حزم ، وعاصم ابن عمر بن قتادة ومحمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب الزهري .

ولم تصل الينا آثار هؤلاء العلماء عدا اقتباسات متناثرة في كتب التاريخ . وقد وجد «بيكر» بين مجموعة أوراق بردي «شت رينهاردت» المحفوظة الآن في «هيدلبرج» مجلدا يرجح أنه يحوي قطعة من كتاب المغازي لوهب بن منبه .

ولم يصل الينا كتاب ابن اسحق بصورته التي كتبها مؤلفه والتي كانت تضم ثلاثة أقسام هي : المبتدأ والمبعث والمغازي . اي انه عالج تاريخ الرسالات قبل الاسلام ، وشباب النبي (ص) ونشاطه في مكة ، وأخيرا الفترة النبوية ، اذ فقد بعض المبتدأ .

وروريت سيرة ابن اسحاق بطرق مختلفة جمع «فيك» قائمة بخمسة عشر تلميذا لابن اسحق يرجح انهم رووا كتاب استاذهم «المغازي» فانتشر في الكوفة والري وبغداد .

وأشهر النسخ المروية عنه نسخة سلمة بن الفضل المتوفى في سنة (١٩١هـ) التي اعتمدها الطبري في تأريخه ، ونسخة يونس بن بكير المتوفى (١٩٩هـ) اعتمدها الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥)هـ في كتابه « المستدرك على الصحيحين » وابن عبدالبر الاندلسي (ت ٤٦٣هـ) في كتابه الاستيعاب ، وابن الاثير (ت ٦٣٠هـ) في أسد الغابة ، وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) في الاصابة .

واحتفظت المكتبة العربية بقطعة مخطوطة من هذه الرواية في جامع القرويين بفاس ، والنسخة الاخرى هي رواية زياد البكائي (ت ١٨٣هـ) وهي الرواية التي اعتمدها ابن هشام في تهذيبه الذي وصل الينا وعرفت سيرة ابن اسحاق عن طريقه .

ويظهر أن زيادا البكائي قد دوّن هذه السيرة مرتين ، فقرأ ابن هشام عليه احداهما في الكوفة ، قال يحيى بن آدم عن ابن ادريس : ما أحد أثبت في ابن اسحاق منه يعني (البكائي) لأنه أملى عليه املاء مرتين . وفضلت رواية البكائي على رواية يونس بن بكير وغيره . قال عثمان الدارمي : سألت ابن معين ، عمن أكتب المغازي ، ممن يروي عن يونس بن بكير او غيره ؟ قال : اكتب عن اصحاب البكائي .

وقال صالح بن محمد : ليس كتاب المغازي عند أحد أصح منه عند زياد ، وزياد في نفسه ضعيف ولكن هو أثبت الناس في هذا الكتاب ، وذلك انه باع داره ، وخرج يدور مع ابن اسحاق حتى سمع منه الكتاب .

ابن هشام

اما ابن هشام راوي السيرة عن البكائي فهو أبو محمد عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري ، بصري قصد مصر وأقام فيها ، وحدث بها في المغازي وغيرها ، واجتمع به الشافعي وتناشدا من أشعار العرب شيئا كثيراً ، وألف « ما وقع في أشعار السير من الغريب» و «شرح أنساب حمير وملوكها » .

وكانت وفاته بمصر لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من سنة (٢١٨هـ) ، وزعم السهيلي انه توفي في سنة ثلاث عشرة .

وقد نسبت سيرة ابن اسحاق الى ابن هشام لانه هذبها وزاد فيها ، ونقص منها ، وحرر اماكن ، واستدرك أشياء .

سيرة ابن هشام :

بعد أن انتشرت سيرة ابن اسحق باسم « سيرة ابن هشام » كما ذكرنا عمد المتأخرون الى تحقيقهـــا ونشرها وأقدم طبعة لها في بولاق مصر سنة (١٢٥٩هـ) فطبعة جوتنجن بألمانيا سنة (١٢٧٦هـ) فبـولاق مـرة أخرى سنة (١٢٩٥هـ) فالجمالية على هامش الروض الأنف (١٩١٤م) ، فمصر سنة (١٣٢٤هـ) مع تعليقات لمحمود الطهطاوي ، ومرة أخرى سنة (١٣٤٧هـ) وطبعة الحلبي بتحقيق السقا وجماعته (١٩٣٦م) ، والتجارية بتحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد سنة (١٩٣٧م) ، وأعيدت طبعة الحلبي (١٩٥٦م) .

وتعاهد الاقدمون هذه السيرة بالشرح والتعليق، فكتب السهيلي (ت ٥٨١هـ) « الروض الأنف في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام » .

وشرحها أبو ذر الخشني توفي (٦٠٤هـ) في كتابه «شرح السيرة النبوية» وشرحها يوسف بن عبدالهادي

سنة (٩٠٩هـ) في « الميرة في حل مشكل السيرة » وهو شرح مختصر .

واختصرها بعض العلماء مثل « بلوغ المرام من سيرة ابن هشام والروض الأنف والاعلام» لابن حجة الحموي توفي (٨٣٧هـ) ، واختصرها الواسطي توفي (٧١١هـ) ، وعبدالله ابن الامام يحيى ، ومنها مختصر لمجهول .

ونظمها بعض العلماء شعرا مثل الفتح بن موسى المغربي ت (٦٦٣هـ) ، ومجهول بعنوان « الوصول الى السول في نظم سيرة الرسول » ، وقد ترجمت الى معظم اللغات الشرقية كالفارسية والتركية .

الشعر في سيرة ابن هشام :

مع ما نال ابن اسحق من شهرة واسعة بعد كتابته للسيرة وأهمية هذه السيرة التي عدها العلماء مصدرا رئيسا لكل من كتب في سيرة الرسول (ص) حتى قال الشافعي : من أراد التبحر في المغازي فهو عيال

على ابن اسحق . فانه قد تعرض بسبب اشعار هـذه السيرة الى نقد شديد واتهامات جارحة ، وأول مـن تعرض له بهذه الاتهامات ابن سلام ت (٢٣١هـ) قال : وكان ممن أفسد الشعر وهـجّنه ، وحمل كل غثاء منه محمد بن اسحق بن يسار ، مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسير ، وكان أكثر علمه بالمغازي والسير وغير ذلك ، فقبل الناس عنه الاشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر ، أُتينا به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذرا ، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعـرا قـط ، وأشعار النساء فضلا عن الرجال ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعارا كثيرة ، وليس بشـعر ، انما هو كلام مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع الى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف من السنين والله تبارك وتعالى يقول : « فقطع دابر القوم الذين ظلموا » أي لا بقية لهم .

وتبعه ابن النديم ت (٣٨٥هـ) فقال : كان يعمل

له الاشعار ، ويؤتى بها و يسأل أن يدخلها في كتاب السيرة فيفعل ، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر ، ونقل ياقوت ت(٦٢٦هـ) ، ما يشبه هذا الاتهام فقال : محمد بن اسحاق كانت تعمل له الاشعار فيضعها في كتب المغازي ، فصار بها فضيحة عند رواة الاخبار والاشعار .

وطعن الذهبي ت (٤٨٤هـ) في ابن اسحاق لايراده الاشعار المكذوبة أيضا فقال : وهو صالح الحديث حاله عندي الا ما قد حشا في السيرة من الاشياء المنكرة المنقطعة ، والاشعار المكذوبة .

هل يستحق ابن اسحق هذه الاتهامات وهذا النقد اللاذع الذي وجهه اليه العلماء ؟ الحقيقة أنه لايوجد ما يدعو الى الشك في صحة كثير من القصائد التي ذكرها ابن اسحق ، وخاصة التي تتصل بحوادث المدينة ، وكثير منها كان معروفا بصحته في عهد ابن هشام لدى علماء الشعر ، ولم يكن ابن اسحق يتمسك

بصحة كثير من الباقي على الاطلاق ، ولكنه لم يقم بأبحاث خاصة في صحتها لم يعتد العلماء المحترفون القيام بها ، ولا تمسه مسألة صحتها مساً خاصا ، فهو استشهد بهذه الاشعار على قدر ظهورها جديرة بالاستشهاد لأنها تنفع في تزيين القصة ، ولان ادخال القصائد في الاخبار النثرية كانت من الامور المتبعة في الفن المأثور القديم عن القصاص العرب .

أما ابن اسحق فقد اعتذر عما وجه اليه من اتهامات بقوله : انه لا علم له بالشعر ، يؤتى به فيحمله، كما مرّ بنا في قول ابن سلام .

والمعروف ان الشعر الكثير المبثوث في كتاب السيرة ، ونعتمد عليه الآن في معظم دراساتنا الادبية للعصر الاسلامي ، هو الشعر الذي هذبه ووثقه ابن هشام في سيرة ابن اسحاق ، وسنحاول في هذه الدراسة تتبع نهج ابن هشام في ذلك .

نهج ابن هشام في رواية الشعر :

ان كتاب ابن اسحاق يضم مجموعة كبيرة من الشعر ، فقد احتجن ما لايقل عن أربعـــة آلاف بيت معظمها من الشعر الاسلامي ، وقد انفرد ابن اسحق عن المؤرخين الآخرين في كثرة الاشعار التي أدخلها في سيرته •

وهذه الاشعار موزعة بين (١٨٦) شاعرا ، لايزيد عدد الجاهليين فيهم على العشرين شاعرا •

وقد تجاوزت أشعار بعض الشعراء الاسلاميين مئات الابيات ، فتبوأ حسان بن ثابت المكانة الاولى في كثرة أشعاره ، فأورد له أربعمائة واثنين وثلاثين بيتا ، فالعباس بن مرداس السلمي الذي أورد له أكثر مـن مائتي بيت • وثمة شعراء آخرون لاتتجاوز أشعار أكثر واحد فيهم المائة بيت ، مثل أبي قيس بن الاسلت ، وبجير بن زهير ، والنابغة الجعدي •

أما الاشعار الجاهلية والاموية فقد كان يوردها

المؤلف للاستشهاد فحسب ، وأبرز الشعراء الجاهليين الذين استشهد بأشعارهم أمرؤ القيس والاعشى وأمية ابن أبي الصلت • وأبرز الامويين رؤبة بن العجاج وذو الرمة والكميت •

ولخص ابن هشام منهجه في تهـذيب السيرة ، فقـال :

وأنا ـ ان شاء الله ـ مبتدىء بذكر اسماعيل بن ابراهيم ومن ولد رسول الله (ص) من ولده وأولادهم وأصلابهم ، الاول فالاول ، من اسماعيل الى رسـول الله (ص) وما يعرض من حديثهم • وتارك ذكر غيرهم من ولد اسماعيل على هذه الجهة للاختصار ، الى حديث سيرة رسول الله (ص) • وتارك بعض ما ذكره ابـن اسحق في هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله (ص) فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شيء ـ وليس سببا لشيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيرا له ولا شاهـدا عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، وأشعارا ذكرها لم أر

أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره ، وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته ، ومستقص - ان شاء الله تعالى - ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له ، والعلم به .

وهكذا حدد ابن هشام بوضوح نهجه في تهذيب وتنقية أخبار واشعار السيرة ، وسنحاول تلمس تطبيق هذا المنهج على الشعر من خلال ملاحظاته التي بثها في ثنايا الكتاب وهي :

أ - استعانته برواة الشعر الموثوقين المعروفين في عصره ، لتوثيق الشعر قبل روايته له ، وترتيب هؤلاء الرواة على وفق كثرة الرجوع اليهم في كتابه :

١ - ابو زيد الانصاري .

٢ - ابو عبيدة .

٣ - خلف الاحمر .

٤ - يونس النحوي .

٥ - خلاد بن قرة الدوسي .

وكنى عن مجموعة أخرى من الرواة ، ولم يذكر أسماءهم بمثل قوله :

١ ـ غير ابن اسحق •

٢ ـ أهل العلم بالشعر •

٣ ـ بعض أهل العلم بالشعر •

٤ ـ بعض أهل العلم بالشعر وحديثه •

٥ ـ بعض أهل العلم بالشعر من أهل الحجاز •

٦ ـ بعض أهل العلم بالرواية للشعر •

٧ ـ بعض أهل العلم بالشعر من بني تميم •

٨ ـ غير واحد من أهل العلم بالشعر •

ان استعانة ابن هشام بهذه المجموعة من الرواة وأهل العلم بالشعر منحت أشعار السيرة توثيقا كانت تفتقر اليه قبل رواية ابن هشام لها •

ب ـ أهمل رواية أشعار رواها ابن اسحاق في سيرته ولكنها بدت له انها مصنوعة ، من ذلك قوله : الشعر الذي في هذا البيت مصنوع ، فذلك الذي منعنا من اثباته ، مشيرا بذلك الى شعر تُبّع •

وقد حذف بعض الاشعار أو الابيات تنزيهـا لكتاب السيرة مما يشينه ، من اقذاع في القول ، او نيل من أصحاب رسول الله (ص) .

فمن الاقذاع الذي تركه قول أبي طالب معرضـا بالمطعم بن عدي ، قال : تركنا منها بيتين أقذع فيهما . وقول الجون بن ابي الجون ، قال : تركنا منها بيتـا واحدا أقذع فيه ، وقول حسان بن ثابت مخاطبا عتبة ابن أبي وقاص قال : تركنا منها بيتين أقذع فيهما ، ومن الشعر الذي نال فيه أصحابه من صحابة رسـول الله (ص) فتركه قول أمية بن أبي الصلت ، قال : تركنـا منها بيتين نال فيهما من أصحاب رسول الله (ص) .

وقد يترك رواية بعض الابيات لاغراض نقدية لا صلة لها بالجانب الخلقي او الديني ، فترك مثـلا أبياتا من قصيدة أبي سفيان بن الحارث ، وقال : بقيت منها أبيات تركناها لقبح اختلاف قوافيها ، او ما اسماه بـ (كراهية الاكثار) قال : تركت قصيدة لأبي اسامة

على اللام ليس فيها ذكر بدر الا في أول بيت منها ، والثاني كراهية الاكثار ، وقد يحذف بعض الابيات ولا يوضح سببا للحذف ، من ذلك قوله في قصيدة لأبي طالب : وبقي منها بيت تركناه •

وفي قصيدة لعبدالله بن الزبعرى قال : تركنا بيتا واحداً منها • وفعل ذلك في مواضع أخرى من الاشعار •

ج - ولعل أبرز المواطن التي وقف عندها ابن هشام في آفاق شعر السيرة اشاراته الواضحة الى ضعف بعض الاشعار التي رواها ابن اسحاق ، وانكار الرواة الموثوقين الذين رجع اليهم في حصره لهذه الاشعار ، معبرا عن ذلك بعبارات قد تختلف في ألفاظها ، ولكنها تتحد في معانيها •

وهو دقيق في ايراد تلك العبارات ليضع الاشعار في مواضعها الصحيحة من حيث التوثيق ، ويمكن تصنيف اشاراته في ذلك الى أربعة أصناف ، أدرج

تحت كل صنف منها الاشعار التي تتفق مـــع درجـة الاشارة من حيث التوثيق ، وهذه الأصناف :

١ ـ وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها له •

٢ ـ واكثر أهل العلم بالشعر يشك فيها له •

٣ ـ ولم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها •

٤ ـ وبعض أهل العلم بالشعر ينكر هذا الشعر له • أو ينكر أكثرها •

د ـ وقد يبدي بعض التعليقـات او التفسيرات النحوية او اللغوية في مواطن من أشعار السيرة ، فمن ذلك قوله في رجز : ولهذا البيت تفسير في النحو ، وقوله تعليقا على بيت لعلي بن أبي طالب (رض) : تقول العرب : التحنث والتحنف ، يريدون الحنفية ، فيبدلون الثاء من الفاء ، كما قالوا : جدث وجدف ، يريـدون القبر ، قال رؤبة بن العجاج :

لو كان أحجاري مع الاجداف

يريد الاجداث • وهذا البيت في ارجوزة له ،

وبيت أبي طالب في قصيدة له ، سأذكرها ـ ان شاء الله ـ في موضعها .

وحدثني ابو عبيدة ان العرب تقول : فمَّ ، في موضع ثم ، يبدلون الفاء من الثاء . واستعان بالشواهد الشعرية اللغوية والنحوية في تفسير ألفاظ الشعر ، من ذلك قوله :

يريد بقوله «اذ» «اذا» كقول الله عزوجل « والظالمون موقوفون عند ربهم » قال ابو النجم العجلي :

ثم جزاه الله عنا اذ جزى
جنات عدن في العلالي والعلا

وزودنا بمجموعة كبيرة من الشروح اللغوية النافعة لمفردات الاشعار التي رواها ابن اسحق لتوضيح ما قد يستغلق على القاريء او يستبهم عليه ، ووضح كثيرا من الاعلام التي وزدت في تلك الاشعار من ذلك :

شرحه لكلمة (طماطم) في شعر عكرمه بن عامر :

فضمهـــا الى طمـاطـم سـود

اخفـره يارب وأنت محمـــود

قال ابن هشام : الطماطم : الاعلاج .

وكلمة (الفجر) في شعر مطرود بن كعب الخزاعي، قال ابن هشام الفَجَر : العطاء .

وحين ورد قول حذيفـــة بن غانـــم في رثـــاء عبدالمطلب :

أمك سر من خزاعه

قال ابن هشام : يعني أبا لهب ، امه لبنى بنـت هاجر الخزاعي .

وفي الشعر الذي ورد فيه اسم (ام معبد) ، قال ابن هشام : ام معبد بنت كعب امرأة من بني كعب من خزاعة .

هـ - روى ابن اسحق كثيرا من الاشـعار خلوا من المناسبة التي قيلت فيها ، فأوضح ابن هشام مناسبة

تلك النصوص ، من ذلك ذكر مناسبة نص لعمرو بن معد يكرب قال : وحدثني أبو عبيدة قال : كتب عمر ابن الخطاب (رض) الى سلمان بن ربيعـة الباهلي •• يأمره أن يفضل اصحاب الخيل ، فمر به فرس عمرو بن معد يكرب ، فقال له سلمان : فرسك هذا مقـرف ، فغضب عمرو وقال : هجين عرف هجينا مثله ، فوثب اليه فتوعده ، فقال عمرو هذه الابيات •

وقال في ابيات لعمر بن الحارث : وحدثني بعض أهل العلم بالشعر : ان هذه الابيات أول شعر قيل في العرب ، وانها وجدت مكتوبة في حجر باليمن ، ولـم يسم لي قائلها • وقد يتوهم ابن اسـحق في مناسـبة النص فيصوب ابن هشام ما يراه وهما ، فعندما نسب ابن اسحق ارجوزة لعبدالله بن رواحة وذكر المناسبة ، قال ابن هشام :

نحن قتلناكم على تأويله الى آخر الابيات •

لعمار بن ياسر في غير هذا اليوم ، والدليل على

ذلك ان ابن رواحة انما أراد المشركين ؟ والمشركون لم يقروا بالتنزيل ، وانما يقتل على التأويل من أقر بالتنزيل .

و ـ وابن اسحق لم ينسب كثيرا من النصوص، أو وهم في نسبة نصوص أخرى ، فعمل ابن هشام جهده لينسب تلك الاشعار ، وأفلح في كثير منها ، وصوّب ما رأى وهم ابن اسحاق فيها ، فحين قال ابن اسحاق : قال شاعر من العرب .

قال ابن هشام : وهذان البيتان لابي خراش الهذلي . ونسب ابن اسحق فائية الى علي بن ابي طالب، فقال ابن هشام : قالها رجل من المسلمين غير علي بن ابي طالب فيما ذكر لي بعض أهل العلم بالشعر ، ولم أر أحدا منهم يعرفها لعلي .

وكان يبذل جهده للتعرف على قائلي بعض الاشعار ، فعندما روى ابن اسحق رجز علي بن ابي طالب في بناء مسجد المدينة ، قال ابن هشام :

سألت غير واحد من أهل العلم بالشعر عن هذا الرجز ، فقالوا : بلغنا ان علي بن ابي طالب ارتجز به ، فلا يدرى : أهو قائله أم غيره ، وفي قصيدة لابي الصلت ابن أبي ربيعة الثقفي ، قال ابن هشام : وتروى لأمية بن أبي الصلت ، وأخرج منها البيت الاخير ، ونسبه للنابغة الجعدي ونسب قصيدة لابي قيس بن الاسلت الى أمية بن أبي الصلت وأخرى للمستوغر قال : وبعض الناس يروي هذه الابيات لزهير بن جناب الكلبي •

ز ـ لم يحاول ابن اسحق ايراد الروايات المختلفة للنصوص الشعرية الواردة في سيرته ، فتعقبه ابن هشام في هذا واورد كثيرا من الروايات المختلفة لنصوص السيرة ، وقد يسند الروايات المختلفة أحيانا الى العلماء الذين رووها ، من ذلك ايراده رواية ابي زيد الانصاري لارجوزة كعب بن مالك ، وهي مخالفة تماما لرواية ابن اسحق •

فرواية ابن اسحق هي :

قد علمت خيبر أني كعب
مفرج الغمى جريء صلب
اذ شبت الحرب تلتها الحرب
معي حسام كالعقيق عضب
نطؤكم حتى يذل الصعب
نعطي الجزاء أو يفيء النهب
بكف ماض ليس فيه عتب

قال ابن هشام : انشدني ابو زيد الانصاري :

قد علمت خيبر أني كعب
وأنني متى تشب الحرب
ماض على الهول جريء صلب
معي حسام كالعقيق عضب
بكف ماض ليس فيه عتب
ندككم حتى يذل الصعب

وعندما روى ابن اسحق بيت عباس بن مرداس :

وما كان حصن ولا حابس

يفوقان شيخي في المجمع

قال ابن هشام : أنشدني يونس النحوي :

فما كان حصن ولا حابس

يفوقان مرداس في المجمع

ورواياته المخالفة لروايات ابن اسحق كثيرة .

ح ـ كثيرا ما يعمد الى ابدال روايات يشك في صحتها ، فيستعين بعلماء الشعر ، قد يسميهم أحيانا ، ويترك تسميتهم أحيانا أخرى ، ويثبت رواياتهم في النصوص التي رواها ابن اسحاق ، وهو أمين في ذلك ، لا ينسى التنبيه على ما يفعل في أواخر النص ، من مثل قوله : وقوله (وشبرقة) عن غير ابن اسحق ، وقوله (المري) عن غير ابن اسحق .

وقد يبدل بعض الكلمات في النصوص التي يرويها ابن اسحق ، تطبيقا للمنهج الذي اختطه في

في مقدمة السيرة ، من ذلك أنه أبدل كلمتين فيهما نيل من رسول الله (ص) قال : أبدلنا من هـذه القصيدة كلمتين مما روى ابن اسحق ، وهما (الفخر) في آخر البيت ، (فمالحليم) فيّ أول البيت ، لانه نال فيها من النبي (ص) •

ط ـ وثمة زيادات في روايات ابن هشـام على الاشعار التي رواها ابن اسحق ، من ذلك قوله في نونية بجير بن زهير بن أبي سلمى في يوم حنين : ويروي فيها بعض الرواة : وأضـاف بيتين علـى روايـة ابـن اسحق • وزيادات أخرى لاشعار لم يرو ابن اسـحق شيئا منها ، من ذلك قوله بعد خبر عن أبي خيثمة رواه ابن اسحق : وقال ابو خيثمة في ذلك شعرا ، واسـمه مالك بن قيس • وروى أربعة أبيات في ذلك •

ومن ذلك قوله بعد خبر ابن اسحق عن غـزوة عيينة بن حصن بني العنبر من بني تميم قال : وقـال الفرزدق في ذلك • وروى ثلاثة أبيات أعقبها بقوله : وهذه الابيات في قصيدة له •

ي ـ وقد يعيد ترتيب الابيات أو يبـــدي رأيا مخالفا للترتيب الذي رواه ابن اسحق لبعض القصائد ، من ذلك تعقيبه على نونية صفية بنت مسافر قـال : ويروون قولها ، وما لبث غريف ، الى آخرها مفصولا من البيتين اللذين قبله .

ومنه : من قوله « أبلغ هوازن اعلاها واسفلها » الى آخرها في هذا اليوم ، وما قيل ذلك في غير هـذا اليوم ، وهما مفصولتان ، ولكن ابن اسحق جعلهمـا واحدة .

ك ـ وثمة ملاحظات عقب فيها ابن هشـام على الأشعار توضح ظروف النص او تلقي عليه ضوءاً يبين قيمته الدينية او التاريخية او الادبية ، من ذلـك قوله بعد قصيدة قتيلة بنت الحارث التي بكت فيها أخاهـا النضر بن الحارث قال : فيقال والله أعلم : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه هذا الشعر ، قال لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه ، وعقب على قصيـدة كعب بن مالك بقوله : وكان كعب بن مالك قد قال :

مجالدنا عن جذمنا كل فحمة

فقال رسول الله (ص) : أيصلح ان تقول مجالدنا عن ديننا ؟ فقال كعب : نعم ، فقال الرسول (ص) : فهو أحسن ، فقال كعب : مجالدنا عن ديننا . وفي لون آخر من تعقيبه على قصيدة لحسان بن ثابت قال : قال حسان هذه القصيدة :

منع النوم بالعشاء الهموم

ليلا ، فدعا قومه ، فقال لهم : خشيت أن يدركني أجلي قبل أن أصبح ، فلا ترووها عني . ومن ألوان هذه التعليقات قوله : حدثني من أثق به قال : حدثني عبدالملك بن يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير ، قال لما قال كعب بن مالك :

جاءت سخينة كي تغالب ربها
فليغلبن مغالب الغلاب

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا .

ل ـ وكان يتحقق من الشعر ان كان قد استوفى ابن اسحق جميع أبياته أم ترك بعضا منها حين رواه • فان استوفاه لم يعقب على ذلك ، وان كان غير مستوف له أشار الى ذلك بمثل قوله :

وهذه الابيات في قصيدة له ، أو هـذا البيـت والبيتان في قصيدة له •

وبعد فلعلي استطعت أن أقدم الصورة الكاملـة لنهج ابن هشام في رواية شعر السيرة النبوية التـي كتبها محمد بن اسحق ونسبت الى عبدالملك بن هشام ابن أيوب المعافري لأنه هذبها وزاد فيها وقص منها ، وحرر أماكن واستدرك أشياء •

شعر الحرب

في العصر الاسلامي

ان شعر الحرب في الادب العربي من أقوى ما نظم الشعراء وأبقى أنواع الشعر على مر العصور وتوالي الاحقاب ، لانه عنوان مفاخر العربي ، وتاريخ أمجاده ، وكتاب أيامه ، وأنشودة انتصاراته وأهزوجة بطولاته .

وقد خلف الشعر الاسلامي شعرا حربيا وفيرا ، يرقى الى مستوى الملاحم العالمية المعروفة . وقد استطاع الشعر أن يعبر عن الاهداف الكبرى للاسلام الذي حمل رسالته أبناء الامة العربية في تحرير الانسان وتحرير العقل البشري من الخرافات ، وتحرير النفس البشرية من نزعات الشر وشهواتها ، ثم في تحريم استغلال القوي الضعيف .

فكل الحروب التي خاضها المسلمون في صدر الاسلام ، لم تخرج عن تلك الاهداف الخيرة النبيلة • « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » • ولعل من بدايات شعر الجهاد والكفاح المسلح الاسلامي ما روي من أن رسول الله (ص) قال يوم وقعة بدر : « لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة » ، فقال عمير بن حمام السلمي : وفي يده تميرات يأكلهن : بخ‌بخ ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة الا ان يقتلني هؤلاء ، ثم قذف التميرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل حتى قتل وهو يقول :

ركضا الى الله بغير زاد
الا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد

فكان أول شهيد في سبيل الله في الحرب •

وقد أسهم الشعر في تحريض المؤمنين على الجهاد ومواصلة الكفاح ، وكان من أعظم الوسائل في استنهاض الهمم ، والهاب جذوة الحماس في صدر المقاتلين للتضحية والاقدام فأنشده القادة يحرضون به المقاتلين على المضي في الجهاد ومواصلة الكفاح ، ففي معركة اليرموك كان القائد خالد بن الوليد يقود جند الحق ، وهو يخاطبهم ليشدوا على العدو قائلا :

هبوا جميعا أخوتي رواحا
نحو العدو نبتغي الكفاحا
نرجوا بذلك الفوز والنجاحا
اذا بذلنا دونه أرواحا
ويقدر الله لنا صلاحا
بنصرنا الغدو والرواحا

وعندما حمل قائد المسلمين شرحبيل بن حسنة على الروم في فتح مصر لم يجد خيرا من الشعر يشحذ به همم المقاتلين ويفجّر فيهم روح التضحية والفداء ،

فأنشد قائلا :

ألا يا عصبة الاسلام صولوا
على الاعداء بالسيف الصقيـل
لنوردهم حياض الموت جهرا
بلذع السمهري الرمح الطويل
وصونوا في الوغى قوما كراما
شدادا فـي المعـامع والنـزول

وحينما كان يعظم النزال ويشتد أوار القتـال يهب الجند المقاتلون لينشدوا الاشـعار معبرين عمـا يجيش في صدورهم من حب الجهاد في سـبيل اللـه ، فتصدح بها حناجرهم دعوة صادقة للتضحية والفداء ، وتحريضا ملتهبا لرفاق السلاح والعقيدة على الزحف والنزال ، فعندما التحم المسلمون بالـروم في فتـح الصعيد بمصر كان المقاتل رفاعة بن زهير المحـاري يحرض الناس منشدا :

يا معشر الناس والسادات والهمم
ويأأهيل الصفا يا معدن الكـــرم

فسددوا العزم لا تبغـوا به فشلا
ومكنوا الضرب في الهامات والقمم

وخلفوا القوم في البيداء مطرحة
على الثرى خمشا بالذل والنقم

وكان أعداء العرب والاسلام هم أنفسهم أعـداء العرب والاسلام هذه الايام ، فقد آزر اليهود معسكر المشركين في حربهم الاسلام ودعوته ، مع انهم أصحاب كتاب مقدس ، وكان المفروض أن يقفـــوا الى جانب المسلمين أصحاب الكتاب المقدس أيضا . ولكن حقدهم على وحدة العرب . وعداوتهم لرسول الله (ص) موحد العرب الاول دفعتهم الى محالفة قريش وتحريضهـــم ضد الاسلام ، وقد سخر كعب بـن الاشرف اليهودي شعره لرثاء قتلى قريش في بدر ، وتحريض القبـــائل على الثأر والانتقام ، ومما قال في ذلك :

طحنت رحى بدر لمهلك أهلـه
ولمثل بـــدر تستهل وتدمـــع
قتلت سراة الناس حول حياضهم
لا تبعدوا أن الملـــوك تصرع

وبعد ذلك انتقل الى استثارة العواطف ، والدعوة الى الثأر قائلا :

نبئت أن بني العشيرة كلهم
خشعوا لقتل أبي الحكيم وجدعوا
نبئت أن الحارث بن هشامهم
في الناس يبني الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وانمـا
يحمي على الحسب الكريم الأروع

ومع ذلك فقد انتصر الحـق ، ووقف الشعراء والمؤمنون الى جانبه يشدون أزره ، ويدعون الى الى نصرته ، ويؤكدون العوامل التي يمكن ان تحقق ذلك النصر وتنشر النور وتمحق الظلام ..

ومن أبرز تلك العوامل التي وقف عندها الشعراء وأكدوا دورها الكبير في تحقيق الانتصار العظيم ايمان المقاتلين بعدالة القضية التي يقاتلون من أجلها ، ووضوح الهدف الذي يسعى المؤمنون الى تحقيقه .

اذ كانت غاية المجاهدين ، اعلاء كلمة الله ونيل رضوانه ، ولنستمع الى الامام علي (رض) يخاطب السيدة فاطمة الزهراء بعد رجوعه من معركة أحد :

أفاطم هاك السيف غير ذميم
فلستُ برعديد ولا بلئيم
أفاطم قد أبليت في نصر أحمد
ومرضاة رب بالعباد رحيم
أريد ثواب الله لاشيء غيره
ورضوانهُ في جنة ونعيم

ويبدو هذا الهدف النبيل واضحا في قول العباس ابن مرداس يوم حنين حيث يقول :

غداة وطئنا المشركين ولم نجد
لامر رسول الله عدلا ولا صرفا
رضا الله ننوي لا رضا الناس نبتغي
ولله ما يبدو جميعا وما يخفى

ويلقانا الشعراء بهذه الاهداف السامية في كل معركة خاضوها آنذاك .

ومن عوامل النصر التي تحدث عنها الشعراء الوحدة بين المسلمين . فقد كانت الوحدة التي تلف المسلمين من أكبر عوامل النصر . فحين توحدت القبائل تحت لواء التوحيد بعد أن كانت مفرّقة يقتل بعضها بعضا ، ممزقة يستغل الاعداء تشتتها . ويؤلب فريقا منها على الآخر ، أصبحت وبفضل الاسلام امة واحدة ، ترهب الخصم وتحقق النصر على العدو .

وقد أشاد الشعر بتلك الوحدة ، وعزز تماسكها منذ معركة الاسلام الاولى في بدر يقول حسان :

فدع عنك التذكر كل يوم
ورد ّ حزارة الصدر الكئيب
وخبر ّ بالـذي لاعيب فيـه
بصدق غيـر أخـبار الكذوب
بما صنع المليك غـداة بدر
لنا في المشركين مـن النصيب
غـداة كـأن جمعهـم حـراء
بـدت أركانه جنـح الغروب
فلاقيناهـم منـا بجمـع
كأسد الغاب مـردان وشيب

أمـام محمـد قـد وازروه
على الاعداء في لفـح الحروب
بنو الأوس الغطارف وازرتهـا
بنو النجار فـي الدين الصليب

ومن عوامل النصر حب الاستشهاد في سبيل الله،
حيث كانت الشهادة أمل كل مقاتل حث عليها القرآن

وندب اليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأدرك مكانتها المسلمون ، وزينها الشعراء ، فصوروها عاملا حاسما من عوامل انتزاع النصر .

ففي معركة أحد يقول كعب بن مالك مجسدا دعوة رسول (ص) المجاهدين للاستبسال والشهادة :

وقال رسول الله لمّا بدوا لنا
ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا
وكونوا كمن يشري الحياة تقربا
الى ملك يحيا لديه ويرجع
فسرنا اليهم جهرة في رحالهم
ضحيّا علينا البيض لا تتخشع

وعندما خرج المجاهدون الى مؤتة ، وهب الناس يودعونهم ، ويدعون لهم بسلامة الرجوع ، أجابهم الشاعر عبدالله بن رواحة بأنه لا يبغي الرجوع سالما ، بل خرج ليحظى بالشهادة وينال منزلة الشهداء الاكرمين ، فقال :

لكنني أسأل الرحمن مغفـــرة
وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حـّران مجهـزة
بحربة تنفذ الأحشاء والكبـدا
حتى يقال اذا مروا على جدثي
أرشده الله من غاز وقد رشدا

وبمثل هذه الروح وتلك العزيمة كان يتحقـق النصر للمؤمنين • ومن عوامل الانتصار القيادة الماهرة الشجاعة الحكيمة المتمثلة بقائد الامة ورسولها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والخلفاء الراشدون من بعده •

ان مشاركة الرسول (ص) في تلك المعارك التي اصطلح عليها المؤرخون (الغزوات) أعطت تلك المعارك قيمة جديدة أدرك المقاتلون معناها حين كانوا يـرون رسول الله (ص) يتقدم الصفوف ويــدير المعـركـة بشجاعة نادرة وتضحية فائقة ، حتى أدميت جبهته ، وشقت شفته ، وسال الدم غزيرا من وجنته فلم يبال ،

بل صمد حين كان يتراجع الابطال ، وتقدم حين يفر الصناديد المقاتلون من الصحابة ، فاتخذه المقاتلون قدوة في الجهاد والصمود ، ودافعوا عنه أكثر مما دافعوا عن أنفسهم ، ففي أحد نثر أبو طلحة كنانته بين يدي رسول الله (ص) وكان راميا ، وجعل يصيح : يارسول الله نفسي دون نفسك فلم يزل يرمي بها سهما بسهم حتى فنيت نبله ، وهو يقول للرسول (ص) نحري دون نحرك ، جعلني الله فداك .

لقد أدرك الشعراء دور القيادة في اصطناع النصر وتحقيقه ، فأشادوا ببطولة الرسول (ص) وتضحياته حيث كان اذا اشتدت الحرب وحمى الوطيس برز كالليث يدافع عن أشباله . قال مالك بن عوف :

واذا الكتيبة عردت أنيابها
بالسمهري وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله
وسط الهباءة خادر في مرصد

وكان يمضي الى الهول حين يتراجـع الابطـال الصناديد ، قال حسان بن ثابت في وصفه عليه الصلاة والسلام :

ماض على الهول ركاب لما قطعوا
اذا الكماة تحاموا في الصناديد

ونص كعب بن مالك على قيادة الرسول الحكيمة الصلبة ، ذات العلم والحلم والخبرة فقال :

رئيسهم النبي وكان صلبـا
نقي القلب مصطبـرا عزوفا
رشيد الأمر ذو حكم وعلم
وحلم لم يكن نزقـا خفيفا

وكان الصبر عدة المقاتلين وسياج المؤمنين ، وقـد جسّد الشعراء هذه السجية الحميدة في أشعارهـم وصدحت بها قرائحهم ، فأدى دوره في تعزيـز النصر وتقريب ساعات التحرير ، فعندمـا ضاقـت بالنفوس

الاضلاع ، وتكاثر من حول المجاهدين الاعداء صبروا لهم حتى تحقق النصر •

يقول العباس بن مرداس في يوم حنين :

ويوم حنين حين سارت هوازن
الينا وضـاقت بالنفوس الاضـالع
صبرنا مع الضحاك لا يستفزنا
قراع الاعادي منهـم والوقائع

وكان الصبر شيمة الابطال ، والسبيل الى تبديـد الاعداء والحاق الهزيمة بجموعهم قال عروة بن زيـد الخيل :

صبرت لأهـل القادسـية معلما
ومثلي اذا لم يصبر القرن يصبر
فطاعنتهم بالرمح حتى تبددوا
وضاربتهم بالسيف حتى تكركروا

أما فنون شعر الحرب في العصر الاسلامي فقـد

توزعت على أنواع ، أبرزها الوصف ، وهو يسير في اتجاهين هما :

الاول وصف المعارك ، حيث كان شعراء تلك الفترة من المقاتلين الشجعان المرافقين للجيوش في زحفها ، ومن هنا كانت مهمتهم مزدوجة ، فهم يقاتلون في صفوف الجيش من جانب ، وشعراء يصورون المعارك ، وينشدون أناشيد الحرب من جانب آخر ، فجاءت أشعارهم لوحات فنية رائعة ، ووثائق تأريخية صادقة ، تسجل الاحداث وتعدد الاسماء ، وتحدد المواضع وترصد الازمان ، ففي بدر مثلا تفجرت قرائح الشعراء ، وأبدعت مخيلتهم في تصوير تلك المعركة ، وتسجيل أمجاد المقاتلين فيها ، وتعداد مآثرهم ، فهذا كعب بن مالك المقاتل الشجاع في جيش المسلمين يرسم لتلك المعركة لوحة فنية تفيض بالحياة وتفيض بالحركة ، فنقرأ وصف المعركة وكأنك تراها :

فساروا وسرنا فالتقينا كأننا
أسود لقـاء لا يرجى كليمها
ضربناهم حتى هوى في مكرّنا
لمنخر سوء مـن لـؤي عظيمها
فولوا ودسناهم ببيض صوارم
سواء علينا حلفهـــا وصميمها

والاتجاه الثاني : وصف السلاح حيـث أسهب الشعراء في وصف عدة الحرب ، وأطالوا فـي تعـداد أنواعها ووقفوا عند مزايا كل منها . فتناولوا وصـف الخيل والرمح والقوس والسهم والدرع وغير ذلك ، وحين سأل عمر بن الخطاب (رض) الشاعر عمرو بـن معد يكرب عن السلاح وأنواعه فقال :

ما تقول في الترس ؟
قال : هو المجن الدائر ، وعليه تدور الدوائر .
قال : فما تقول في الرمح ؟
قال : أخوك ، وربما خانك فانقصف .

قال : فالنبل ؟

قال : منايا تخطيء وتصيب .

قال : فما تقول في الدرع ؟

قال : مثقلة للراجل ، متعبة للفارس ، وانها لحصن حصين .

قال : فما تقول في السيف ؟

قال : هناك لا أم لك يا أمير المؤمنين ، فضربه عمر بالدّرة . وقال : بل لا أم لك .

قال : الحمى أضرعتني لك . (أي دار الاسلام أخضعته لعمر فسكت) .

ومن أبرز نعوت الخيول ، انها كالاسود شجاعة ، عارية القوائم مكتنزة اللحم ، نشيطة الحركة ، خفيفة في العدو ، تردي العدو وتعود بأسلابه ، تامة الخلقة ، عابسة عند اللقاء ، تتنازع أعنتها اذا سمعت من يناديها ، وتصغي لمن يدعوها .

أما السيوف فهـي كقطـع النيـران بأيـدي المجاهدين ، يهلكون بها العدا ، يبـددون الجموع لا ينفل لها حد ، ولا ينحني منها شكل ، تلمـع كبـرق الخريف .

والرماح موصوفة بالاستقامة والاعتدال ، والقسي مصنوعة من أجود أنواع الخشب ، النبع الذي ينبت في قمم الجبال الشمّاء ، والسهام مرشـوشة بالسمّ الذي يفري مواطن الاصابة في الاعداء .

وكانت الدروع من أبرز أسلحة الدفـاع التـي حظيت بأوصاف شعراء الحرب ، فهي من نسـج داود وتبّع واسعة فضفاضة ، تخشخش على أبدان المجاهدين كأنها صفحة الغدير الذي تصفقه الرياح ، وقد أحكمتها مسامير لامعة كأنها عيوب الجنادب .

ان هذه النعوت التي كان يضفيهـا الشعراء على أسلحتهم انما كانوا يفعلون ذلك ليدللوا على فضـل حامليها وبطولاتهم .

والفن الشعري الثاني الذي رافق معارك الاسلام الاولى هو الفخر والحماسة ، فقد تمثلت البطولة الحربية العربية في هذا الفن أروع تمثيل ، وعرض الشعراء في قصائدهم كل المناقب والمآثر التي يعتز بها الفرد العربي المسلم ويفخر ، ومن أبرز المناقب الشجاعة ، حيث تغنى بها المقاتلون الابطال وترنموا بمظاهرها المختلفة في ساحات الوغى والنزال حتى تهاوت تحت أقدامهم طواغيت الكفر والظلم والطغيان .

ومنها الصبر والثبات ، وتنفيذ الاوامر ، والاستجابة لداعي الجهاد ، حيث تهافت المؤمنون على التطوع والجهاد في سبيل الله لايخشون الموت ولايرهبونه (بل انه يمشي في ركابهم لينزلوه صواعق على اعداء الله ورسوله ودينه ، الذين استحالوا الى كباش تنتظر الذبح ، فلا يلتقون معهم حتى تسيل دماؤهم أنهارا ، وكأنما اخترع الدين الحنيف أبطاله اختراعا) .

فعندما كتب الخليفة الصديق الى ملـوك اليمـن وأهل مكة داعيا اياهم الى الجهاد في سبيل الله ، كانت حمير في طليعة قبائل اليمن استجابة لندائه ، فتوجهوا نحو القيادة في المدينة بكامل أسلحتهم ، يتقدمهـم الشاعر ذو الكلاع الحميري ، فلما قرب من الخليفة أشار بالسلام وجعل ينشد قائلا :

أتتك حمير بالأهلين والولد
أهل السوابق والعالون بالرتب
أسـد غطـارفة شوس عمالقـة
يردوا الكماة غدا في الحرب بالقضب
الحرب عادتنا والضرب همتنا
وذوا الكلاع دعا في الاهل والنسب
دمشق لي دون كل الناس أجمعهم
وساكنوها سأهويهم الى العطب

والفن الثالث الرثاء ، ولم يكن هذا الفن في شعر الحرب غرضا مقصودا لذاته بقدر ما كان اظهارا لمشاعر

الود والوفاء ، والاخوة الصادقة ، ودعوة للاقتداء بالشهداء والاهتداء بتضحياتهم • وقد عرف الرثاء في شعر الحرب ألوانا جديدة لم يعرفها الشعر العربي من قبل كرثاء النفس ، حيث رثى بعض شعراء الفتوحات الاسلامية أنفسهم قبل أن تحين منيتهم ، حين كانوا يجدون أنفسهم بعيدين عن أوطانهم ، غرباء عن ديارهم ، فبكوا أنفسهم ، لا من أجل الموت الواقع ، بل للموت البعيد الذي كانوا يحسون وقع مأساته ، وعظم مصيبته وهم ينظرون حولهم فلا يجدون أهلا أو أحبابا ، ولا من يبكيهم أو يندبهم ، فتعظم المصيبة عليهم ، ويزداد ألمهم فيفزعون الى الشعر ينفسّون به عما يعتلج في نفوسهم ، ومن ألوان الرثاء الجديدة رثاء الاعضاء التي يفقدها المقاتلون في ساحات القتال ، فيحتسبون تلك الاعضاء في سبيل الله ويعدون فقدها تضحية من أجل العقيدة ، وصورة من صور الفداء •

لقد روى الشعراء صورا رائعة لتلك التضحيات

وأمثلة حية للوفاء من أجل المبادىء وللصمود دفاعا عن العقيدة ، فحين طعن الشاعر علباء بن جحش في بطنه واندلقت أمعاؤه ، لم يجزع لذلك ، ولم يتردد في الاقدام ، بل دفع بأمعائه الى داخل بطنه منشدا وهو يجود بأنفاسه الاخيرة :

أرجو بها من ربنا ثوابا
قد كنت ممن أحسن الضرابا

ولما قطعت يد عبدالله بن ابي سبرة الجرشي وهو يبارز رئيس الروم في يوم خلطاس ، احتسبها عند الله ، ونظم أبياتا رائعة يفخر فيها بما قدمته تلك اليد في سبيل العقيدة والمبدأ ، حيث بارزت أرطبون الروم ، ووجهت اليه ضربة سيف ولم تنفصل عن جسمه حتى قطعت أوصال الخصم ، ومما هوّن المصيبة عنده ، ما بقي من جذور تلك اليد المقطوعة فبتلك الجذور سوف يمسك السيف ثانية ليدافع عن المبادىء ، ويذود عن

الحق كل عدو . لقد ترجم تلك الافكار والمشاعر في مقطوعته التي يقول فيها :

يمنى يديّ غدت عني مفارقة
لم أستطع يوم خلطاس لها تبعا
وما ضننت عليها أن أصاحبها
لقد حرصت على ان نستريح معا

الى ان يقول :

فان يكن أرطبون الروم قطعّها
فقد تركت بها أوصاله قطعا
وان يكن أرطبون الروم قطعها
فان فيها بحمدالله منتفعا
بناتين وجذمورا أقيم به
صدر القناة اذا ما آنسوا فزعا

ولم يكتف الشعراء برثاء الشهداء واظهار الحزن عليهم ، بل حاولوا اشراك العوالم الطبيعية في رزء

المصاب فهي تحس وتتألم وتبكي وتنوح على شـهداء الاسلام ، مشاطرة ذوي الشهداء الاحزان والالام ، فتظلم أركان الارض ويسوّد نور القمر لمصرع سيد الشهداء حمزة . وتشارك حمام الأيك خالد بن الوليد أحزانه . وتتحمل معه آلامه فتنوح لاستشهاد ولـده سليمان في حروب الروم بالشام ، وتنقل أخبار شهداء الاسلام لذويهم .

أما الهجاء فقد اتخذ في ظل الحروب الاسلامية ـ على الاغلب ـ صورة المناقضات الشعرية ، ومعروف أن فن المناقضات يعني أن ينقض شاعر ما قاله الشاعر الآخر بضد ما جاء به الاول ، وقد عرف هذا الفـــن قبـل الاسلام ، ولكن الشعراء لم يلتزموا فيه كل القيود التي التزم بها الشعراء الاسلاميون والامويون من بعد .

وقد تميزت تلك النقائض الاسلامية بخصائص يمكن اجمالها في سمو الموضوعات التي عالجتها ونبل الغاية التي قصد اليها الشعراء من خــلال المعـانـي

الاسلامية الجديدة التي تحدثوا عنها ، كالايمان والكفر والجنة والنار مع الافادة من المعاني القديمة التي تعالج المآثر والاحساب والمثالب والايام .

وقد تداخلت الفنون الشعرية بعضها مع البعض الآخر في النقيضة الواحدة .

أما الطرق التي سلكها الشعراء في تلك النقائض فهي الطرق المعروفة في هذا الفن ، كالتكذيب والمقابلة والقلب والتوجيه والوعيد والشماتة ، مع غلبة أسلوب التهديد والوعيد الذي يناسب الحروب .

وربما تضافر أكثر من شاعر مسلم لنقض ما قاله شاعر المشركين ، انطلاقا من وحدة الهدف والعقيدة كما حصل يوم الخندق حين انبرى كعب وحسان لنقض قصيدة شاعر المشركين عبدالله بن الزبعرى في بائيته التي مطلعها :

حتى الديار محا معارف رسمها
طول البلى وتراوح الاحقاب

وعرف شعر الحرب الدعوة الى السلام ، اذ لم يكن هدف المقاتلين الحرب لذاتها ، وانما كانوا يضطرون اليها اضطرارا لتحرير العقول والنفوس والارضين ، فكانوا دعاة سلام يقاتلون من أجله ، ولم يعدم شعر تلك الفترة من دعوات الشعراء الى السلام ونبذ الحروب والانقياد الى الحق الذي يدعو اليه الاسلام ، فقد كان يتوجه المجاهدون الى ساحات المعارك وهم يرددون قوله تعالى « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » وسنجد صدى هذا النداء في شعر كعب بن مالك :

فان تلقوا الينا السلم نقبل
ونجعلكم لنا عضدا وريفا
وان تأبوا نجاهدكم ونصبر
ولا يك أمرنا رعشا ضعيفا

وللمرأة دورها المتميز في شعر الحروب الاسلامية ، فقد شاركت المرأة العربية الرجال في الشعر

كما شاركتهم في ساحات المعارك ، فوصفت تلك المعارك ، وأحسنت تصوير الابطال ، ولم تكن أقل من الرجال في الوصف ولكنها فاقته في التعبير عن المشاعر .

ويكفي شواعر العرب فخرا أن تكون بينهن الشاعرة الكبيرة الخنساء ، وقصتها مع أبنائها في معركة القادسية معروفة ، حيث رفدت تلك المعركة بأبنائها البررة الابطال ، فتشرفوا بالاستشهاد ، وشرفت بأن كانت أم الشهداء الابطال ، واحتفظت كتب التاريخ والادب بالمناظرة الشعرية الرائعة التي دارت بين الخنساء وأبنائها الاربعة الابطال الشهداء ، فلما بلغها خبر استشهادهم بعد تلك المناظرة قالت :

الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته .

وقصة الشاعرة خولة بنت الازور الفارسة الملثمة معروفة ، وقد ختمتها بقولها مخاطبة القائد خالد بن

الوليد بعد أن حسرت اللثام عن وجهها : أنـا خولـة الكندية ، أخت ضرار بن الازور ، من بقايا الملوك أتيت مع قومي ، لشد عضدك في حرب الروم ثم انشدت بين يديــه :

نحن بنات تبــع وحميــر
وضربنا في القوم ليس ينكــر
لأننــا في الحــرب نــار تسعر
اليوم يسقون العذاب الأكبــر

وبرعت الشاعرة الاسلامية في رثاء شهداء المعارك ، فبكتهم بعاطفة الزوجة كما فعلت الشاعرة نعــم بنت حسان حين استشهد زوجها شماس بن عثمان المخزومي في أحد ، وعاتكة بنت زيد حين اســتشهد زوجهــا عبدالله بن أبي بكر .

وبكته بعاطفة الاخت كما فعلت الشاعرة صفية بنت عبدالمطلب حين استشهد أخوها حمزة في أحد .
وبكته بعاطفة الام كما فعلت زينب بنت العــوام حــين

استشهد ابنها عبدالله بن حكيم بن حرام • وبكته بعاطفة القريبة كما فعلت هند بنت أثاثة حين استشهد عبدة بن الحارث بعد بدر •

وقد تولدت عن تلك الحروب فنون شعرية جديدة نادرا ما تطرق اليها الشعراء من قبل مثل شعر الغربة والحنين الذي تحدثنا عنه في موضع آخر •

ومن الاغراض الجديدة شكوى العمال ، فقد كان يحس الشعراء المجاهدون أحيانا بمجانبة بعض عمال الولايات الاسلامية الحق ، وهم يسرون بتلك الولايات أو يقيمون فيها مع بقية أفراد الجيش الاسلامي فلا يسكتون عن تلك الاساءات ويرفعون أمرها الى الخليفة شعرا يلهب ظهور المسيئين ، من ذلك شكوى يزيد بن قيس عمال الاهواز وغيرهم الى الخليفة عمر بقصيدة مطلعها :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة

فأنت أمين الله في النهي والامر

اتى فيها على ذكر مجموعة من العمال المسيئين وسمى ولاياتهم مشخصا تلاعبهم بأموال المسلمين ، فقاسم الخليفة كل الذين ذكرهم الشاعر شطر أموالهم .

كما استأثرت المشاهد الغريبة التي لم يألفها المجاهدون في بلادهم باهتمام الشعراء منهم ، فأبدعوا في تصويرها ، وأطالوا الوقوف عندها ، وأبدوا دهشتهم البالغة واستغرابهم لتلك المناظر التي لم يألفوها من قبل ، فزخرت أشعارهم بأوصافها ، كالأبنية الشاهقة والقصور المنيفة ، ومواطن العبادة المزخرفة والجبال العالية المكسوة بالثلوج والفيلة الضخمة .

ومن تلك الاغراض شعر الأسر الذي تحدثنا عنه في شعر الفتوحات .

وأخيرا عرف شعر الحروب الاسلامية (المنصفات) وهي القصائد التي يصف فيها الشعراء خصومهم ويعترفون لهم بما يتميزون به في ساحات الحرب من

شجاعة وصلابة وقدرة على الاحتمال ويعد هـــذا الاعتراف سجية عربية ، وخصلة كريمة ، تميز بهـــا الشعراء العرب في ساحات الوغى وساحات النـــزال وشيمة من شيم الفرسان .

من ذلك قصيدة كعب بن مالك في أحد ، ومنها :

تهادى قسيّ النبع فينا وفيهم
وما هـو الا اليثربيّ المقطع
فنلنا ونال القوم منا وربمـــا
فعلنا ولكن ما لدى الله أوسع

وقد تميزت أشعار الحرب في العصر الاســلامي بجملة من الخصائص الفنية والظواهر العامة ، يمكن تلخيصها بالآتي :

١ ـ البعد عن التكلف والتصنع :

اذ يغلب على أشعار الحرب في العصر الاسلامي البعد عن الصقل والتهذيب والمراجعة فلم يتهيأ للشعراء

أن يراجعوا أشعارهم أو يثقفوها ، ولم يغرقوها في الخيال لانهم كانوا ينقلون لوحاتهم نقلا أمينا • مع تغلغل سماحة الاسلام في ألفاظهم وتراكيبهم ، مما نأى بهم عن أي تصنع او تكلف •

٢ ـ وضوح أثر الاسلام في معاني الشعر وألفاظه :

حيث كان الشعراء يغترفون من آي القرآن الكريم ، ومن الحديث النبوي الشريف نصا او روحا وقد تجلى هذا التأثر واضحا في شيوع المصطلحات والالفاظ والمعاني ، الاسلامية الجديدة • حيث تسللت الى أشعار الحرب بمرور الايام وانتشار الاسلام •

كمصطلح النبي والرسول والجهاد والاستشهاد والفيء والجزية وجند الله •

كما يبدو أثر الاسلام واضحا في صور القسم والدعاء والقصص القرآني ، تلك الصور التي نجدها مبثوثة في ثنايا الاشعار الحربية الجديدة ، ولم يعرفها

الشعراء قبل الاسلام كما انتشر الاقتباس في أكثر تلك الاشعار .

٣ ـ المزج بين الفروسية والوصف والفخر :

فقد امتزج الفخر بالحماسة التي كان يستمدها الشعراء من فروسيتهم ، متحدثين عن شجاعتهم وبطولاتهم التي تزخر بها المعارك حين يأتي وصفها في أشعارهم .

٤ ـ التزام الشعراء :

فقد شاع في أشعار الحرب ما يمكن ان نسميه بالمصطلح الحديث « الالتزام » اذا اتخذ الشعراء فنهم وسيلة لنشر الغايات والمبادىء التي آمنوا بها ، وتشبعت بها عقولهم ونفوسهم فصار الشعراء أداة اجتماعية تحفظ للأمة وحدتها وتصون عقيدتها ، وتنشر أفكارها وتبعد عنها كل ما يشين سلوكها او سمعتها .

٥ ـ غلبة الطبيعة التاريخية :

اذ يبرز الجانب التأريخي في شعر الحرب بصورة ملحوظة فهو أقرب الى الوثائق التأريخية التي تؤرخ للامة في أخطر مراحل تطورها ، وتحفظ لها المواقع الايام والبطولات ، والامجاد ، واسماء القتلى والشهداء ، والقادة المرموقين والجند المتميزين .

٦ ـ اتصال الاشعار الوثيق بموضوع الحرب :

وهو امر طبيعي ، فقد خالط الشعراء المقاتلين ، لأنهم منهم ، وتنقلوا معهم في كل صفحات المعارك وحملوا معهم السلاح في كل وقفة ومعركة فجاءت أشعارهم زاخرة بذكر السيوف والرماح والقسي والدروع والنبال والخيل ، تفيض بذكر الدماء ، والقتل والشجاعة والاقدام والضرب والطعن ، كما ترددت فيها بعض أسماء التنظيمات العسكرية كالرعيل والعصبة والكتيبة والجيش .

٧ ـ كثرة الاراجيز :

فمن المعروف ان الرجز من أسهل البحـور على ألسنة الشعراء ، فتناوله شعراء الحرب في مبارزاتهم ومناجزاتهم واستعانوا به في مواجهة العدو ومنازلته ، فقلما تركه أبطالهم أو خلت منه معاركهم ، فقد كـان المقاتل منهم يكتفي بالبيت الواحد من الرجز ولا يزيد على خمسة أبيات او ستة ، تسيل على لسانه موسيقى عذبة ، تشحذ الهمم وتحدو بالركب ، وكان يقوم (بدور الطبول التي تقرع لتحميس الجنـــد ، واشـعال أوار الحرب) بعيدا عن الاناة والتجويد الذي كان يوفـره بعض الشعراء لقصائدهم .

٨ ـ وفرة عدد الشعراء :

فلا تكاد صفحة من صفحات كتب السـيرة او التأريخ الحربي للعصر الاسلامي تخلو من الشعر أو ذكر الشعراء ، فقد أنطقت تلك الحروب عددا وفيرا من

المقاتلين بالشعر ، فبرزت أسماء لانجد لها شعرا الا في تلك الحروب ، أمثال القعقاع التميمي وأخيه عاصم ، وأبي نجيد ، وضرار بن الازور وغيرهم ، الى جانب الشعراء الكبار المعروفين أمثال حسان بن ثابت ، وكعب وابن رواحة ، والعباس بن مرداس وزيد الخيل الطائي، وعبدة بن الطبيب وغيرهم •

حتى ليخيل للدارس أن كل المجاهدين قد استحالوا شعراء أسهموا في صياغة ملاحم الحروب الاسلامية الاولى •

شعر الفتوحات

في صدر الاسلام

حين اشرق الاسلام في الارض ، وعمت أنواره الكون ، وعمرت به نفوس العرب أمدهم بطاقة روحية هائلة ، فاندفعوا في أقطار الارض فاتحين محررين ، لا حباً في الغزو ، ولاتهافتا على غنيمة ، بل جهادا في سبيل الله ، واعلاء لرسالته في الارض ، فاستهانوا بالصعاب ، واستعذبوا الشهادة في سبيل الله ، موقنين ان الحياة تفنى ، والآخرة تدوم ، وأن ما عندالله خير وأبقى •

وقد حبب الله الى المؤمنين الجهاد ، وزينّه في صدورهم ، فقال تعالى :« فليقاتل في سبيل الله الذين

يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما » .

و « يا أيها الذين آمنوا ، هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » .

وثمة عشرات الآيات التي تحث على الجهاد ، وتدعو الى القتال في سبيل الله .

وجاءت الاحاديث النبوية مؤكدة لمعنى الجهاد في قلوب المؤمنين ، فجعلته أفضل الاعمال بعد الايمان ، وذروة سنام الاسلام ، وبابا من أبواب الجنة ، الى ما هناك من أحاديث تبين فضله ، وتحث على الأخذ به ، وتؤكد أن ما سوف يلاقيه المجاهدون المؤمنون واحد من أمرين : الشهادة فالجنة أو النصر فالعزة والكرامة .

وضرب رسول الله (ص) أروع الامثلة في البطولة والجهاد في سبيل العقيدة ، فأثمرت تعاليمه ،

وتأثر به أتباعه ، فانطلقوا وهم يحملون في صدورهم تلك التعاليم الربانية ، يحدوهم الهدف السامي الذي خرجوا من أجله .

وقد عبر عن ذلك المغيرة بن شعبة حين التقى برستم الطاغية فقال له : يدخل من قتل منا الجنة ، ويدخل من قتل منكم النار ، ويظفر من بقي منا بمن بقي منكم .

وقد ترددت هذه المعاني السامية في أشعار المجاهدين ، وتداولتها أفواه المقاتلين في سبيل الله ، فهذا النابغة الجعدي يخاطب زوجته حين ناشدته الله البقاء وعدم الخروج للقتال :

باتت تذكّرني بالله قاعدة
والدمع ينهلّ من شأنيهما سبلا
يا بنت عمي كتاب الله أخرجني
كرها وهل أمنعن الله ما بذلا

فان رجعت فرب الناس أرجعني

وان لحقت بربي فابتغي بـدلا

ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرني

أو ضارعا من ضنىً لم يستطع حولا

وهذا شاعر مسلم آخر يصور استجابة المؤمنين لداعي الله الى الجهاد فيقول :

جزى الله أقواما بجنب مشرّق

غداة دعا الرحمن من كان داعيا

جنانا من الفردوس والمنزل الذي

يحل به م الخير مـن كان باقيا

وفي أشعار أبناء الشاعرة الكبيرة الخنساء خيـر مثال على تشرب روح المؤمنين بحب الجهاد في سبيل الله ، والفداء من أجل المبادىء ، فصاغوا نصيحة أمهم ملحمة شعرية رائعة ، وجعلوها أنشودتهم في ساحات الوغى ، فقد حضرت معركة القادسية ومعها بنوها

الاربعة ، فقالت لهم من أول الليل : يابنيّ انكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ، ووالله الذي لا اله إلا هو انكم لبنو رجل واحد ، كما انكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ، ولا هجّنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم . وقد تعلمون ما أعد للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا ان الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . فأن أصبحتم غدا - ان شاء الله - سالمين فاغدوا الى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، فاذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها ، واضطرمت لظىً على سياقها ، وجللت نارا على أرواقها ، فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها ، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة . فخرج بنوها قابلين لنصحها ، عازمين على قولها . فلما أضاء الصبح باكروا مراكزهم ، وأنشأ أولهم يقول :

يا اخوتي ان العجوز الناصحة
قد نصحتنا اذ دعتنا البارحة
مقـالـة ذات بيـان واضحـــة
فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وانما تلقـون عنـــد الصائحة
من آل ساسان الكلاب النابحة
قد أيقنوا منكم بوقـع الجائحة
وأنتم بين حيـــاة صالحـة
أو ميتة تورث غنما رابحـة

وتقدم فقاتل حتى استشهد ، ثـم حمـل الثاني وهو يقول :

ان العجوز ذات حـزم وجلـد
والنظر الاوفق والرأي السـدد
قد أمرتنا بالسداد والرشـد
نصيحة منهـا وبـــر[٣] بالولد

فباكروا الحرب حماة في العدد
اما لفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عز الابد
في جنة الفردوس والعيش الرغد

فقاتل حتى استشهد ، ثم حمل الثالث وهو يقول :

والله لا نعصي العجوز حرفا
قد أمرتنا حدبا وعطفا
نصحا وبرا صادقا ولطفا
فبادروا الحرب الضروس زحفا
حتى تلفّوا آل كسرى لفا
أو يكشفوكم عن حماكم كشفا
انا نرى التقصير منكم ضعفا
والقتل فيكم نجدة وزلفى

فقاتل حتى استشهد ، ثم حمل الرابع وهو يقول :

لســت لخنساء ولا للاخــرم
ولا لعمرو ذي السناء الاقــدم
ان لم أرد في الجيش جيش الأعجم
ماض على الهول خضم خضرم
امــا لفـــوز عاجـل ومغنم
أو لوفاء في السبيل الأكرم

فقاتل حتى استشهد ، فبلغها الخبـــر فقالت : الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته .

وحين كان يلتقي المسلمون بأعدائهـــم ، وتلتحم المعارك فيما بينهم ينبـري شـعراء الاسـلام لتصوير وقائعها ورصد أحداثها ، فهذا الاسود بن قطبة التميمي يصور هول المعركة التي وقعت بين الفرس والمسلمين في يوم « أليس » بالعراق ويعدد قتلى العدو وأسراهـم فيقول :

لقينـــا يـــوم أليّس وأمغى

ويـــوم المقـــر آساد النهـار

فلم أر مثـلها فضلات حرب

أشد على الجحاجحـــة الكبار

قتلنـا منهـم سبعين ألفـاً

بقيـة حزبهـم نخـب الآسـار

سوى من ليس يحصى من قتيل

ومن قـد غال جـولان الغبار

وينتقل الشاعر البطل القعقاع بن عمرو الى وقعة «الفراض» التي تحالف فيها الفرس والـروم وبعض الخونة من مشركي العرب ضد المسلمين فيقول :

لقينـا بالفراض جمـــوع روم

وفرس غمّهـــا طول السـلام

أبـدنا جمعهـم لمـــا التقينـــا

وبيّتنـا بجمـــع بنـــي رزام

فما فتئت جنود السـلم حتى
رأينـا القـوم كالغنم السّوام

وحين التقى المسلمون بقيادة أبي عبيدة مع الفرس في «النمارق» أنشد عاصم بن عمر التميمي مقطـوعة يوضح فيها ما حقق الله على أيـدي المسـلمين مـن الانتصارات متتبعا مواضع الاشتباكات ، ذاكراً ما أنزل المسلمون بالفرس من هزائم ، قال :

لعمري وما عمري عليّ بهيّن
لقد صبحت بالخزي أهل النمارق

بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم
يجوسونهم ما بين درتا وبـارق

قتلناهم ما بين مـرج مسلح
وبين الهوافي من طريق البذارق

ويصوّر زياد بن حنظلة معركة « أجنادين » في الشام ، وانتصار المسلمين فيها بعد أن قتلوا ثمانين ألفا

من الروم ، فجاءت قصيدته مزيجا من الفخر والوصف وهو ما يميّز شعر الحماسة ، قال :

ونحن تركنا أرطبون مطـرّداً
الى المسجد الاقصى وفيه حسور
عشية أجنادين لمـّا تتابعوا
وقامـت عليهـم بالعـراء نسور
عطفنا لـه تحت العجاج بطعنـة
لها نشـــج نائي الشهيق غزير
فطمنا به الروم العريضة بعـده
عن الشام أدنى ما هناك شطير
تولت جموع الروم تتبع أثره
تـكاد من الذعر الشديد تطـير
وغودر صرعى في المكر كثيرة
وعاد اليه الغل وهـو حسير

ورسم الشاعر المجاهد قيس بن المكشوح صورة دقيقة لخط سير المسلمين في معركة القادسية ، مصورا

بلاءه في تلك المعركة الفاصلة ، مؤكدا شجاعة المسلمين وفداءهم في ساحات القتال :

جلبت الخيل من صنعاء تـردي
بـكل مـدجـج كالليث سـام
الى وادي القرى فديار بكر
الى اليرموك فالبـلد الشـآم
وجئنا القادسية بعـد شهر
مسـوّمة دوابرهـا دوامـي
فناهضنا هنـالك جمـع كـسرى
وأبنـاء المـرازبة الكـرام
فلما أن رأيت الخيـل جالت
قصدت مواقف الملك الهمام
فأضرب رأسـه فهوى صريعـا
بسيف لا أفـلّ ولا كهـام
وقد أبلى الالـه هناك خيراً
وفعل الخـير عند اللـه نامي

وهكذا اتسم وصف المعارك بصور شجاعة وبأس واقدام المجاهدين الابطال • ويلقانا الشعراء بمثل هذه الصور في كل معركة خاضوها في فتوح العراق وفارس والشام ومصر وأفريقيا ، وغيرها من البلدان المفتوحة والمحرّرة •

وعندما كانت تنأى بالمجاهدين المسافات ، وتطول بهم الأيام ، كانوا يحسّون بالغربة ويتشوقون الى بلدانهم وأهليهم فيرسلون زفراتهم أشعارا مشحونة بالعواطف الرقيقة ، زاخرة بآلام الفرقة ولواعج البعاد ، فهذا أحد المجاهدين يحسّ بوقع الحنين الى موطنه نجد ، فيقول متشوقا الى أرضها ، متطلعا الى خيامها ، يتأملها عن بعد فتنحدر دموعه ، ويذوب قلبه تشوقا ، فيصوغ ذلك عبارات رقيقة هي :

أكرر طرفي نحو نجد وانني
برغمي وان لم يدرك الطرف أنظر

حنينـا الى أرض كأن ترابهـا
اذا أمطرت عود ومسك وعنبر

بلاد كـأن الاقحوان بأرضهـا
ونور الاقاحي وشي برد محبّر

أحنّ الى أرض الحجاز وحاجتي
خيام بنجد دونها الطـرف يقصر
وما نظري من نحو نجد بنافـع
أجل - لا - ولكني الى ذاك أنظر

أفي كل يوم نظـرة ثم عبـرة
لعينيك مجرى مائها يتحـدّر

متى يستريح القلب اما مجاوز
بحرب واما نازح يتذكـر

وهذا شاعر آخر يقع نظره على قمرية تشـدو حزينة ، وتنوح لفرقة الفهـا ، فتهيج أحزانه ، وتستبدّ به آلام الغربة ، فيدعوها ليطارحها البكاء ، فقد ألفّت

بينهما الغربة ، ووحدت شأنيهما الآلام في أرض «مرو الشاهجان» فيقول :

أقمرية الوادي التي خان الفهـــا
من الدهر أحداث أتت وخطوب
تعالـــي أطارحـــك البكاء فاننـــا
كـــلانـــا بمرو الشاهجان غريب

وقد يضيق الشعراء بطبيعة البلاد التي فتحوها ، فجوها يختلف عما ألفوه في بلادهـــم وتعودوه فـــي بيئتهم ، فكانوا ينظمون ذلك شعرا يفيض بالتبـــرم والاشفاق ، فهذا أحد الشعراء المجاهدين يعلن ضيقه بالبرد القارص في بلاد فارس ، فيرسم لوحـــة فنيـــة لمناظر الثلج الذي يذري ، والبرد الذي يلسع ، فيضطر المقرور الى دس يديه في جيبه ، ولا يكاد يخرجها كأنه مأسور ، قال :

وأرى بمرو الشاهجان تنكرت
أرض تتـــابـــع ثلجهـــا المذرور

اذ لا ترى ذابزة مشهورة
الا تخال كأنه مقرور
كلتا يديه لا تزايل ثوبه
كل الشتاء كأنه مأسور

وحين كان يتسابق شباب الاسلام الى الجهاد في سبيل الله ، والانضواء تحت راية الفداء مخلفين وراءهم العجائز والشيوخ من الآباء ، كان يعز ذلك على الآباء ، ويصعب عليهم فراق أبنائهم فيتوسلون الى الحكام لرد أبنائهم وابقائهم الى جانبهم حيث لا يستطيعون أداء واجبات الحياة وتكاليفها بمنأى عن أبنائهم .

فحين خرج شيبان بن المخبل السعدي في خلافة عمر بن الخطاب مع سعد بن أبي وقاص لحرب الفرس ، جزع عليه أبوه وكان قد أسنّ وضعف جسمه ، وكاد يغلب على عقله ، فعمد الى ماله ليبيعه ويلحق بابنه شوقا اليه ، فمنعه علقمة بن هوذة وأعطاه فرسا وقال

له : أنا أكلم لك الخليفة عمر في رد ابنك وتوجّه الى الخليفة ، وأنشده قول المخبل :

أيملكني شيبان في كـل ليلـة
فقلبي من خوف الفراق وجيب
ويخبرني شيبان ان لم يعقني
تعـــقّ اذا فارقتني وتحوب

ويقول له :

فان يك غصني أصبح اليوم باليـا
وغصنك مـن ماء الشباب رطيب
اذا قال صحبي : يا ربيـع ألا ترى
أرى الشخص كالشخصين وهو قريب

فرقّ له عمر ، وكتب الى سعد يأمـره أن يـرد شيبان الى أبيه ، فرده اليه ، ولم يـــزل عنـــده حتى مـات .

وعندما خرج كلاب بن أمية بن حرثان بن الاسكر ملبيا نداء الحق لحرب الفرس تاركـــا أبويه شـيخين

عاجزين ، ظل أبوه يبكيه ويتشوق اليـــه ، وينظـم الاشعار في ذلك . ومما قال :

تركت أبـاك مرعشة يـداه
وأمك ما تسيغ لهـا شرابـا
اذ نعب الغـراب ببطن وجّ
على بيضاته ذكـــرا كلابـا

وقال متشوقا الى ابنه أيضا :

أعاذل قد عذلت بغيـر علم
وما يدريك ويحـك ما أُلاقي
فـامـا كنـــت عـاذلتي فردي
كلابـا اذ توجـــه للعـــراق
سأستعدي على الفاروق ربّاً
له رفع الحجيج الى بسـاق[1]
ان الفاروق لم يـردد كـــلابا
الى شـيخين هامهمـــا زواقـي

---

(١) بساق : جبل بعرفات .

فبلغ عمر شعره ، فكتب الى سعد يأمره باقفال كلاب ، فلما قدم أرسل عمر الى أمية ، فقال له : أي شيء أحب اليك ؟ قال : النظر الى ابني كلاب . فدعاه له ، فلما رآه اعتنقه وبكى بكاءً شديدا ، فبكى عمر وقال : ياكلاب الزم أباك وأمك ما بقيا .

وعندما هاجر خراش بن ابي خراش الهذلي في أيام عمر غازيا مع المسلمين أوغل في أرض العدو ، وطال به الزمن ، فقدم أبوه المدينة ، وجلس بين يدي عمر ، وشكا اليه شوقه الى ابنه ، وانه رجل قد انقرض أهله ، وقتل أخوته ، ولم يبق له ناصر ولا معين غير ابنه خراش ، وغزا وتركه ، ثم أنشأ يقول :

الا من مبلغ عني خراشا
وقد يأتيك بالنبأ البعيد
وقد يأتيك بالاخبار من لا
تجهز بالحذاء ولا تزيد

ينـــاديـــه ليغبقـــه كليـــب
ولا يأتي لقـــد سفه الوليـــد
فـــردّ انـــاءه لا شـــىء فيـــه
كأن دمـــوع عينيـــه الفريد
وأصـــبح دون غابقـــه وأمسى
جبال من حـــرار الشام ســـود
ألا فاعلم خراش بـــأن خير الـــ
مهاجـــر بعـــد هجرتـــه زهيـــد

فكتب عمر بأن يقبل خراش الى أبيه ، وألا يغزو من كان له أب شيخ الا بعد أن يأذن له .

وقد استأثرت المشاهد الغريبة التي لم يألفها العرب من قبل بقسط كبير من اهتمام شعراء الفتوح في صدر الاسلام ، فصوروا تلك المناظر تصويرا دقيقا بارعا ، وأبدوا دهشتهم ، وتملكهم الاستغراب من تلك المناظر التي يعاينونها لاول مرة ، فكان الشعر خير ما يفزعون اليه لتسجيل تلك الظواهر الغريبـة ، فـكانت الفيلـة

الضخمة من أبرز تلك المظاهر التي شدّتهم اليها ، فأنطقتهم بالشعر للتعبير عن مشاهدها الغريبة ، فذكرها ربيعة بن مقروم ، وفخر برؤيتها وحولها أبناء فارس من الأعداء . قال :

ودخلت أبنيــــة الملــوك عليهم
ولشر قول المرء ما لــم يفعــل
وشهدت معركة الفيول وحولها
أبناء فارس بيضهـــا كالاعبل
متسربلي حلق الحديد كأنهـــم
جــرب مقــارفة عنية مهمــل

وكما وصف الشعراء الفيلة اتوا على ذكـــر الحشرات التي كانت غريبة ، فآذتهم وآذت دوابهم ، فقال أحدهم يشكو من الذباب الذي آذى ناقته :

لقد حبست في كربــلاء مطيتي
وفي العين حتى عاد غثا سمينها

اذا رحلت من مبرك رجعت لـه
لعمـــر أبيهـــا انني لا أهينها

ويمنعها من ماء كل شريعـة
رفاق من الذبان زرق عيونهـــا

وقد أولى الشعراء عـدة الحـرب كثيرا مـن الاهتمام ، فأتوا على وصفها ، وأطالـوا فـي تعـداد محاسنها ، فوصفوا الخيول والسيوف والرماح والقسي والدروع والنبال ، فنعتوها بأحسن النعوت واكملها ، وانما كانوا يفعلون ذلك للتدليل على فضل حامليهـــا وبطولاتهم . ولعل من أروع تلك الاوصاف قول أبي محجن الثقفي :

لمـا رأينـا خيـلا محجـلةً
وقوم بغي في جحفل لجـب

طـرنا اليهـم بكـــل سلهبة
وكل صافي الاديم كالذهب

وكـــل عرّاصـــة مثقفـــة

فيها سنان كشعلة اللهـــب

وكل عضب في متنه أثـــر

ومشرفي كالملح ذي شـطب

وكــــل فضفاضة مضاعفة

من نســـج داود غير مؤتشب

ومن أشد ما كان يؤلم المسلمين أن يقع أبناؤهم أسرى بأيدي الاعداء ، وطالما فزع ذوو الاسـرى الى الشعر يعبرون به عن أساهم ومصابهم بأسراهم لمـــا كانوا يخشون من غدر الاعداء وحقدهم ، فحين وصل خبر أسر ضرار بن الازور ومن معه الى المسلمين فـي فتوحات الشام ، شقّ ذلك على جمــــوع المسلمين ، وبكى أبو عبيدة وخالد بن الوليد على أسرهم برقـة القائد وحرصه على افراد جيشه ، وقالا : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وبلغ ذلـــك أخت ضرار خولة ، فقالت : انا لله وانا اليه راجعون ، يا ابن أمي

ليت شعري في السلاسل أوثقــوك ؟ أم بالحـــديد قيدوك ؟ أم في البيداء طرحوك ؟ أم بدمائك خضبوك؟ وأنشدت تقول :

ألا مخبر بعد التفرق يخبرنا
فمن ذا الذي يا قوم اشغلكم عنا

فلو كنت أدري أنه آخـر اللقا
لكنا وقفنا للوداع وودّعنـــا

ألا يا غراب البين هل أنت مخبري
فهـــل بقـدوم الغـائبين تبشـرنا

فقد كانت الأيـام تزهـو بقربهـم
وكنا بهم نزهو وكانوا كمـــا كنا

ألا قاتل الله النوى مـا أمـرّه
وأقبحه ماذا يريد النوى منـا

ذكرت الليالي الجمـع كنا سوية
ففرقنا ريـب الزمـــان وشتتنا

لئن رجعوا يوما الى دار عزهم
للنا خفافا للمطايا وقبّلنا

ولم أنس اذ قالوا ضرار مقيد
تركناه في دار العدو ويممنا

فما هذه الايام الا معارة
وما نحن الا مثل لفظ بلا معنى

سلام على الاحباب في كل ساعة
وان بعدوا عنا وان منعوا منا

واجتمعت النسوة العربيات ، ممن كان لهنّ أسرى ، مع ضرار ، عند خولة ، وفيهن مزروعة الحمرية ، وكانت من فصحاء زمانها ، وكان ولدها صابر بن أوس أسيرا مع ضرار ، فجعلت تندب ولدها ، وتعرض حالها بأبيات تفيض حزنا ورقة قالت :

أيا ولدي قد زاد قلبي تلهبا
وقد أحرقت مني الخدود المدامع

وقد أضرمت نار المصيبة شـطة
وقد حميت مني الحشا والاضالع
وأسأل عنك الركب كي ما يخبروا
بحالك كيمـا تستكنّ المدامـع
فلم يك فيهم مخبر عنك صـادق
ولا منهم من قـال انك راجـع
فيا ولدي مذ غبت كدرت عيشتي
فقلبي مصدوع وطـرفي دامـع
وفكري مقسـوم وعقلي مولّه
ودمعي مسفوح وداري بلاقـع
فان تك حيـاً صمت لله حجـة
وان تكن الاخرى فما العبد صانع

ولم يكن هول المعارك ليشـغل المجاهـدين أو يصرفهم عن التوجه الى الله تعـالى ، يستمدون منـه العون ، ويستنزلون به النصر على الاعداء ، فمن أجله خرجوا ولاعلاء كلمته جاهدوا ، فـلا غرو أن تكـون

كلماته أنشودتهم في القتال ومرضاته غايتهم في الجهاد .

فهذا خالد بن الوليد يحمل على الروم في فتح دمشق ، وهو ينشد :

لك الحمد مولانا على كل نعمة
وشكرا لما اوليت من سابغ النعم
مننت علينا بعد كفر وظلمة
وأنقذتنا من حندس الظلم والظلم
وأكرمتنا بالهاشمي محمد
وكشفت عنا ما نلاقي من الغمم
فتمم اله العرش ما قد ترومه
وعجّل لأهل الشرك بالبؤس والنقم
ولقهم ربي سريعا ببغيهم
بحق النبي سيد العرب والعجم

ولم يفتر لسان المجاهدين عن ذكر الله ، ولاقلوبهم

عن الانابة اليه ، فهذا ضرار بن الازور يبتدر لحرب الروم في فتح دمشق وهو ينشد :

عليك ربي في الامور المتكل
اغفر ذنوبي ان دنا مني الأجل
يا ربي وفقني الى خير العمل
وعني أمح سيدي كل الزلل
أنا ضرار الفارس القرم البطل
باغ على الأعداء أضحي المتصل
أقمع بسيفي الروم حتى يضمحل
ما لي سواك في الامور من أمل

وقد أسهم الشعر في تحريض المؤمنين على الجهاد ومواصلة الكفاح وكان من أعظم الوسائل في استنهاض الهمم والهاب جذوة الحماس في صدور المقاتلين فأنشده القادة واستعانوا به لتحريض الجند على المضي في الجهاد ومواصلة القتال فعندما خرج خالد بن الوليد لقتال الروم في اليرموك أنشد محرّضا أصحابه على

الخروج فقال :

هبوا جميعا اخوتي رواحا
نحو العدو نبتغي الكفاحا
نرجو بذاك الفوز والنجاحا
اذا بذلنا دونه أرواحا
ويقدر الله لنا صلاحا
بنصرنا الغدوّ والرواحا

وقال القائد شرحبيل بن حسنة حين حمل على الروم في فتح مصر محرضا جند الحق من اتباعه المسلمين :

ألا يا عصبة الاسلام صولوا
على الاعداء بالسيف الصقيل
أذيقوهم حياض الموت جهرا
بلذع السمهري الرمح الطويل
وموتوا في الوغى قوما كراما
شدادا في المعامع والنزول

ولما عظم النزال واشتد أوار القتـــال وحمـــي الوطيس بين المسلمين والروم في حروبهم لفتح صعيد مصر كان رفاعة بن زهيـر المحـــاربي يحرض النـاس ويستثير بشعره هممهم وهو ينشد قائلا :

يا معشر الناس والسادات والهمم
ويا أهل الصفا يا معـدن الكـرم

فسددوا العزم لا تبغوا به فشلا
ومكنوا الضرب في الهامات والقمم

وخلـّفوا القـوم في البيداء مطرحة
على الثرى خمشا بالـــذل والنقم

وللرثاء مكان بارز في شعر الفتوحات الاسلامية ، فقد وصلت الينا مجموعة من المراثي الرائعة لمن فقد في تلك الحروب وسقط شهيدا فى سبيل المبـــادىء الخيرة • ومن أروع تلك المراثي قصيدة كثير النهشلي الذي كان في جيش الاقرع بن حابس التميمي يرثي

بها من أصيب في معارك الطالقان وجوزجان لعهد عمر ابن الخطاب ، وفيها رثاء لنفسه أيضا ، قال :

سقى حزن السحاب اذا استقلت
مصارع فتية بالجوزجان
الى القصرين من رستاق خوط
أقادهم هناك الاقرعان
وما بي أن أكون جزعت الا
حنين القلب للبرق اليماني
ومحبور برؤيتنا يرجّي اللقا
ء لن أراه ولن يراني
وربّ أخ أصاب الموت قبلي
بكيت ولو نعيت له بكاني
دعاني دعوة والخيل تردي
فما أدري أباسمي أم كناني
فكان اجابتي اياه أني
عطفت عليه خوّار العنان

وأي فتى اذا مامت تدعو
يطرّق عنك غاشية السنان

وهي تجري على هذا النمط .

ويسقط شهداء الاسلام فداءً لمبادئهم فينهض الشعراء لتخليدهم ، فحين استشهد نافع بن غيلان الثقفي بدومة الجندل قال أبوه يرثيه :

ما بال عيني لا تغمّض ساعة
الا اعترتني عبرة تغشاني
يا نافع من للفوارس أحجمت
عن شدة مذكورة وطعان
لم أستطيع جعلت مني نافعا
بين اللهاة وبين عقد لساني

فعوتب أبوه على كثرة بكائه ، فقال : دعوني أبكي فسينفد دمعي .

فقيل له بعد ذلك : أين دموعك ياغيلان؟ فقال :

كل شيء يبلى ، بلي نافع ، وبليت الدموع ، واللحاق به قريب ٠

وهذا الاعور بن قطبة يتجاذبه شعوران متضاربان شعور بالفرح والسرور لان أخـاه قتل قائدا من قواد الفرس ، وشعور بالحزن والالم لفقد أخيه البطل الذي طعنه ذلك الفارسي قبل أن يقضي نحبه ، فيقول :

لم أر يوما كان أحلى وأمر
من يوم أغواث اذ افترّ الثغـر
من غير ضحك كان أسوا وأبر

وعندما استشهد الحتات فـي قتـال الفرس المجوس ، بكاه أبوه ذريح بن الحارث ببيتين يفيضان لوعة ويقطران أسىً ، قال :

ابغي الحتات في الجهاد ولا ارى
له شبها مـا دام للـه سـاجدّ
وكان الحتات كالشهاب حياته
وكل شهاب لا محالة خامـد

ونحن نحس في هذا الرثاء ضـــربا مـــن روح الاستسلام لقضاء الله وحسن تقبله ، واعتزازا وفخرا أكيدا بما أعده الله للشهداء من حسن الاجر وعظيـم الثواب .

صدى الهجرة النبوية في شعر صدر

الاســـلام

حين بدأت الدعوة الاسلامية بالانتشار في مكة ، وكثر أتباعها من الرجال والنساء أحسّت قريش بما يمكن أن يهدد مستقبلها ونفوذها في المنطقة ، فتصدت لهؤلاء المسلمين ، تحبس من تقدر على حبسه منهم ، وتتفنن بتعذيب من تقدر على تعذيبه ، فتنزل به صنوف الاذى والاضطهاد .

وقد روى أصحاب السيرة أن المستضعفين من المسلمين ألبسوا دروع الحديد ، وصهروا في الشمس حتى بلغ الجهد منهم .

وتحدث التاريخ عن نماذج كثيرة لما كان يلاقي

هؤلاء المستضعفون من ألوان العذاب والاضطهاد ، كآل ياسر الذين فقدوا ياسرا وسمية شهيدين تحت التعذيب ، وزنيرة التي عذبها المشركون حتى فقدت بصرها ، وبلال الذي كان يضع المشركون حبلا في رقبته ويجره الصبيان على وجهه ، وخباب الذي قال : لقد رأيتني يوما وقد أوقدوا لي نارا ، ثم سلقوني فيها ، ثم وضع رجل رجله على صدري ، فما أتبت الارض الا بظهري ، ولولا أني سمعت رسول الله يقول : لايتمنين أحدكم الموت ، لتمنيته .

فلم يجد هؤلاء المستضعفون أمامهم الا الهجرة الى مكان يجدون فيه الاطمئنان والامن في عبادة الله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يرى ما ينزل بهؤلاء المسلمين من العذاب والبلاء ، ويتألم لحالتهم أشد التألم ، ولكنه لا يقدر أن يمنع ما هم فيه من البلاء ، فارشدهم قائلا : « لو خرجتم الى أرض

الحبشة ، فان فيها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » .

وفي رواية أخرى : تفرقوا في الارض ، فـان الله تعالى ، سيجمعكم .

قالوا : أين نذهب ؟ قال : الى ها هنا ، واشـــار بيده الى أرض الحبشة .

ومن هنا كانت أول هجرة في الاسلام عنـــدما خرج المسلمون من مكة متسللين بالخفاء ، وباعــداد قليلة ، متكونة من بعض الاسر المسلمة ، وتوجهوا الى الحبشة عن طريق البحر ، حيث صـــادفـوا سفينتين تجاريتين متوجهتين الى الحبشة ، فصعـــدوا اليهمـا ووصلوا الى الحبشة .

ولم تحس بهم قريش الا بعد مغادرتهم .

وقد اطمأن هؤلاء المهاجرون بأرض الحبشــة ، وحمدوا جوار النجاشي ، وعبدوا الله لا يخافون على ذلك أحداً .

وأحسن النجاشي جوارهم حين نزلوا به ، ولم يتغير عليهم مع كل الجهود التي بذلتها قريش لافساد علاقته بالمسلمين .

فحفظ المسلمون له هذه المكرمة ، وخلّدوها في أشعارهم فأرسل عبدالله بن الحارث بن قيس مقطعة الى من في مكة من المسلمين ، يعبر فيها عن رأي المهاجرين في الحبشة ، وهي مقطّعة ذات قيمة كبيرة ، لأنها تمثل الشعر الاسلامي في عصر مبكر حيث قال :

يا راكبا بلغن عني مغلغلة
من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرىء من عباد الله مضطهد
ببطن مكة مقهور ومفتون
انا وجدنا بلاد الله واسعة
تنجي من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز
ي في الممات وعيب غير مأمون

ان هذه الرسالة صرخة مدوية في آذان المستضعفين الذين ارتضوا حياة الذل والهوان والعذاب مع أهلهم في مكة ، بلد الطغيان والعنف •

★ ★ ★

لقد كانت هذه الهجرة تمثل حقيقتين كبيرتين :

اولاهما : حقيقة الاضطهاد الذي صبه المشركون على من أسلم حتى اضطروهم الى الفرار بدينهم •

وثانيتهما : قوة ايمان المهاجرين ، حيث تركوا أوطانهم ، وتخلوا عن ممتلكاتهم ، وفارقوا ذويهم من أجل عقيدتهم ودينهم •

وقد حزّ الفراق في قلوب المهاجرين بالحبشة ، وتألموا لتخلي اقوامهم عنهم ، وخذلانهم ، وراحوا يندون بقريش التي اضطرتهم الى الهجرة والنزوح عن أرضهم الى بلاد بعيدة غريبة ، بعد أن أذاقتهم أنواع العذاب وأنزلت بهم كل صنوف الاضطهاد والاذى •

والى هذه المعاني يشير عبدالله بن الحارث :

أبت كبدي ، لا اكذبنك ، قتالهم
علـــيّ وتأبـاه علـــيّ أناملـــي
وكيف قتالي معشراً أدّبوكـم
على الحق ان لا تأشبوه بباطل
نفتهم عباد الجن من حرّ ارضهم
فاضحوا على امر شديد البـلابل
وبدلت شبلا شبل كل خبيثـة
بذي فجر مأوى الضعاف الارامل

كما حركت هذه الهجرة وجدان الشـــعراء في مكة ، والهبت مشاعرهم ، فسالت أشعارهم معبرة عن عواطفهم الصادقة تجاه أولئك المهاجرين .

فهذا ابو طالب يحاول استمالة قلب النجاشي ، بعد أن ارسلت قريش وفـــدا مـــن المشركين لتأليب النجاشي على المسلمين الذين قصدوه ، ويدعـــوه الى تعويض هؤلاء المستضعفين عن فراق الاهل والوطن ،

وكتب اليه يحضّه على حسن جوار المهاجرين ، والدفع عنهم :-

ألا ليت شعري كيف في النأي جعفر
وعمرو وأعــداء العــدو الاقــارب
وهل نال أفعــال النجــاشي جعفــرا
واصحابه أو عـــاق ذلـــك شاغـب
تعلّم أبيــت اللعــن أنــك ماجــد
كريم فلا يشقى لديك المجانب
تعلّم بأن اللــه زادك بســطة
وأسباب خير كلها بــك لازب
وأنك فيض ذو ســجال غزيرة
ينال الاعادي نفعها والاقــارب

وعادت هذه الهجرة على المسلمين بالنفع الكبير ، فأتاحت لهم الحرية في ان يعبروا عمــا في قلوبهم ، ويتحدثوا بما كانوا يخشون الحديث بــه في مكــة ، فعنّفوا قريشا ، ووصفوها بجحود الحق ، والسير على

طريق من سبقهم من الطغاة الجاحدين كقوم عاد ومدين وأهل الحجر ثمود •

وتلك قريش تجحد اللـه حقّه
كما جحدت عاد ومدين والحجر
فان أنا لم أبرق فـلا يسعنّني
من الارض برّ ذو فضاء ولا بحر
بأرض بها عبـد الالـه محمـــد
أبيّن ما في النفس اذ بلـغ النقر

وتشجع الضعفاء المضطهدون ، حيث وجدوا في أرض الحبشة متنفسا عما كانوا لا يستطيعون قوله في مكة ، فانطلق الشعراء يؤنبون من سلبوهم حريتهم ، واضطروهم الى هجرة الاهل ، والنزوح عن الوطـن ، فقال عثمان بن مظعون يعاتب أمية بن خلف ، وهو ابن عمه ، وكان يؤذيه قبل الهجرة ، الاسلامية :

أتيم بن عمرو للذي جاء بغضة
ومن دونه الشرمان والبرك أكتع

أأخرجتني من بطن مكة آمنـا
وأسكنتني في صرح بيضاء تقذع
تريش نبالا لا يواتيك ريشهـا
وتبري نبالا ريشها لك أجمـع
وحاربت أقواما كراما أعـزة
وأهلكت أقواما بهـم كنت تفزع
ستعلم ان نابتـك يوما ملمـة
وأسلمك الأوباش ما كنت تصنـع

هذا ما كان من أثر الهجرة الى الحبشة في الشعر العربي .

أما الهجرة الكبرى ، هجرة المسلمين الى يثرب فقد أراد الله لدينه أن ينتشر خارج مكة التي اوصد أبناؤها قلوبهم ، وصكوا أسماعهم ، فلـم يصيخـوا لدعوة الله ، ولم يستجيبوا لدعوة الحـق . فخـرج رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعـرض نفسـه ودعوته على القبائل العربية في كل موسم ، وفي ذات

مرة لقي نفراً من الخزرج عند العقبة ، فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج • قال : أمن موالي يهود ؟ قالوا : نعم • قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه فدعاهم الى الله ـ عزوجل ـ وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن ، فأجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدّقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام ، وقالوا له : انا تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم الى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك • ثم انصرفوا راجعين الى بلادهم ، وقد آمنوا وصدقوا •

كان هؤلاء الطليعة الخيرة لنشر الاسلام في يثرب ، حيث دخل بهم الاسلام الى اكثر دور أهلها من العرب •

وما كاد أن يحل الموسم الثاني حتى كانت بيعة العقبة الاولى ، ثم العقبة الثانية التي سميت بالعقبة الكبرى ، وكان بها فتح الاسلام الكبير في المدينة ، حيث تنادى المسلمون بعدها للهجرة الى يثرب ، ليقيموا المجتمع الاسلامي الجديد في بلد لا يجدون فيه الاضطهاد ، ولا يضايقهم فيه أحد بالسخرية والاستهزاء .

لقد هاجر المسلمون الى يثرب بعد ان وصفها لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وندبهم للهجرة اليها ، حيث قال مخاطبا المسلمين في مكة : « اني قد أُريت دار هجرتكم . أريت سبخة ذات نخل بين لابتين » .

وفي حديث آخر : (رأيت في المنام أني أهاجر من مكة الى أرض بها نخل فذهب وهمي الى انها اليمامة او هجر ، فاذا هي المدينة يثرب) .

لقد وجد المسلمون في يثرب الوجهة التي أرادها الله لهم ، وحددها رسوله لمسيرتهم لكي تكون صفحة

من صفحات خطة شاملة لقيام الدولة الاسلامية وقد تناول الشعر هذا الامر حين قال بحير بن عمران الخزاعي :

وهجرتنا في أرضنا عندنا بها
كتاب اتى من خير ممل وكاتب

وعندما عزم المسلمون على التوجه الى مدينة يثرب وجد بعضهم معارضة للتوجه الى تلك المدينة ، ودارت مناظرات في ذلك ، نقلها الينا الشعر في قول أبي أحمد بن جحش بن رئاب حيث يقول مصورا ما جرى بينه وبين زوجته :

لما رأتني أم أحمد غاديا
بذمة من أخشى يغيب وأرهب
تقول : فاما كنت لابد فاعلا
فيمّم بنا البلدان ولتنأ يثرب
فقلت لها : بل يثرب اليوم وجهنا
وما يشأ الرحمن فالعبد يركب

الى الله وجهي والرسول ومن يقم

الى الله يوما وجهه لا يخيّب

ثم يصور أثر الفراق على ذوي المهاجرين وأحبائهم ؛ ولكنها الرغائب السامية التي يهون معها كل صعب :

فكم قد تركنا من حميم مناصح

وناصحة تبكي بدمع وتندب

ترى أن وتراً نأينا عن بلادنا

ونحن نرى أن الرغائب تطلب

لقد كانت هذه الهجرة فراراً بدين الله ، وطلبا للامن والاستقرار اللذين فقدهما المسلمون في موطنهم الاصلي مكة ، وقد صور الشعر تلك الاسباب فقال أبو أحمد بن جحش متحدثا عن هجرة بني اسد بن خزيمة من قومه :

ولو حلفت بين الصفا أم أحمد
ومروتها بالله برّت يمينها
لنحن الألى كنا بها ثم لم نزل
بمكة حتى عاد غثا سمينها

بها خيّمت غنم بن دودان وابتنت
وما ان غدت غنم وخف قطينها
الى الله تغدو بين مثنى وواحد
ودين رسول الله بالحق دينها

وواكب الشعر أحداث الهجرة أولا بأول ، فعندما هاجر اكثر المسلمين وبقي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه أبو بكر وعلي بمكة ، وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن الرسول في الهجرة فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يجيبه :

لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحبا .

وحين كان يفكر أبو بكر بفراق رسول الله صلى

الله عليه وسلم اذا هاجر وحده ويترك موطنه مكـة ، كان يعتريه الغم والحزن وينشد مع نفسه قوله :

لو ضمني أنا بيت والحبيب به
لكان ذلك لي روض وبستان
وأطيب الارض ما للقلب فيه هوى
سم الخياط مع المحبوب ميدان

ويتربص المشركون بالنبي صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، ويبيت علي بن ابي طالب (رضى الله عنـه) مكانة ليوهم المشركين بأنه (صلى اللـــه عليه وسلم) ما يزال في مكة ، ويتحدث الشعر عن ذلك بلسان علي ابن ابي طالب ، حيث يقول :

وقيت بنفسي خير من وطىء الثرى
ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
رسول الله خاف أن يمكروا به
فنجاه ذو الطول الاله مـن المكر
وبات رسول الله في الغار آمنا

موقى وفي حفظ الاله وفي ستر
وبتّ أراعيهم وما يثبتونني
وقد وطنت نفسي على القتل والاسر

وتنطوي صفحة هذه المؤامرة ، وينجو الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه ولكن المشركين لم ييأسوا ، وراحوا يرسمون خطة جديدة للتآمر على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فنادى أبو جهل في مكة : من جاء بمحمد ، او دل عليه فله مائة بعير ، أو جاء بابن أبي قحافة ، او دل عليه ، فله مائة بعير ، فلحق بهما سراقة بن مالك ، فلما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم ، دعا الله قائلا : اللهم اكفنا بما شئت . فساخت قوائم فرس سراقة ، فقال : كفيتم ما همنا ، ولا يلقى أحدا الا رده .

فلما سمع ابو جهل بقصة سراقة أنشأ هذين البيتين ، وبعث بهما اليه :

بني مدلج اني أخاف سفيهكم
سراقة يستغوي بنصر محمـد
عليكم به أن لا يفرق جمعكـم
فيصبح شتى بعد عـز وسؤدد

ويجيبه سراقة ، فلا يستطيع الا ان يقـول مـا حدث له :

ابا حكم واللات ان كنت شاهدا
لأمر جوادي أن تسـيخ قوائمه
عجبت ولم تشكك بأن محمـدا
نبيّ ببرهـان فمـن ذا يكـاتمه
عليك بكف القوم عنـــه فانني
أرى أمره يومـا ستبدو معالمـه
بأمر يود الناس فيه بأسرهـــم
بأن جميـع الناس طــراً يسالمه

ولم يتخلف الشعر عن تصوير حادثة غـار ثور المعروفة في تاريخ الهجرة ، والمحاورة التي جرت بـين

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه الصديق في الغار ، والتي تحدث القرآن الكريم عنها في قوله : «ثاني اثنين اذهما في الغار ، اذ يقول لصاحبه : لا تحزن ان الله معنا » .

فقال ابو بكر الصديق كما يروي يونس :

قال النبي ولم يزل يوقرني
ونحن في سدف من ظلمة الغار
لا تخش شيئاً فان الله ثالثنا
وقد توكل لي منه باظهار
وانما كيد من نخشى بوادره
كيد الشياطين كادته لكفار
والله مهلكهم طرا بما كسبوا
وجاعل المنتهى منهم الى النار

ويمر الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه بخيمة ام معبد الخزاعية ، وتحلب شاتها العجفاء التي خلفها الجهد عن بقية الغنم ، ويرتوي من حليبها رسول الله صلى الله عليه وسلم والصديق ، ويتركان بعدهما

من خيرها ودرها الجم الكثير ، وينهض الشعر ليصور هذه الحادثة العجيبة فيقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه
رفيقين حـلا خيمتي أم معبـد
هما نزلا بالبـر ثـم تروّحـا
فأفلح من أمسى رفيـق محمد
فيا ليقصي ما روى الله عنكـم
به من فعال لا تجاري وسؤدد
سلوا أختكم عن شاتها وانائهـا
فانكم ان تسألوا الشاة تشهـد
دعاها بشـاة حـائل فتحلبت
له بصريح ضرة الشـاة مزبـد
فغادره رهنا لديهـا لحـالـب
يدرّ بهـا فـي مصدر ثم مورد

ويحدثنا احد شهود العيان من أهل المدينة عـن ساعات الانتظار القلقة الطويلة التـي كـان يعيشهـا

المسلمون بيثرب في انتظار القادم العظيم فيقول :

كنا نخرج اذا صلينا الصبح الى ظاهرة حرتنا ، ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فاذا لم نجـد ظلا دخلنا ، وذلك في ايام حارة ، حتى اذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسنا كما كنا نجلس ، حتى اذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنـا البيوت فكان أول من رآه رجل من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع ، وانا ننتظر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا . فصرخ بأعلى صوته : يابني قيله ، هذا جدكم (حظكم) قد جاء .

فخرجنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر وازدحم عليه الناس .

وقال صحابي آخر : جاء النبي صلى اللـه عليه وسلم الى المدينة في الهجرة فما رأيت أشد فرحا منهم

بشيء من النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى سمعت النساء والصبيان والاماء يقولون : هذا رسول الله قد جـاء .

وخرجت جماهير مسلمي المدينة لتستقبل هذا القادم الكريم ، وهي تنشد :

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة
مرحبا يا خير داع

وما أن استقر المقام في المدينة حتى فأجأت المسلمين حمى الملاريا ، فأصيب بها بلال وأبو بكر

وغيرهما من المسلمين ، واستوخموا جو المهجر الجديد .

وتحركت في قلوب الجماهير عواطف الشوق ولواعج البعاد عن وطنهم الحبيب في مكة ، واستبدت الاشواق في المرضى منهم ، فقال بلال متشوقا الى جبال مكة ، متمنيا رؤية معالمها ، وورود مياهها :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بفخ ، وحولي اذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة
وهل يبدون لي شامة وطفيل

وحين سئل عامر بن فهيرة بعد أن تمكنت الحمى منه ، كيف تجدك يا عامر ؟ قال :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه
ان الجبان حتفه من فوقه

كل امرىء مجاهد بطوقه

كالثور يحمي جلده بروقه

قالت السيدة عائشة (رض) : فذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعت منهم ، فقلت : انهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى ، قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم حبب الينا المدينة كما حببت الينا مكة ، أو أشد ، وبارك لنا في مدها وصاعها ، وانقل وباءها الى مهيعة . وراح عليه السلام يصبّر أصحابه بمثل قوله :

« لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي الا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة ، ولا يدعها أحد رغبة عنها الا أبدل الله فيها من هو خير منه » .

ومعروف أن الشعر من أصدق الوثائق التي تعين المؤرخين على تثبيت الاحداث وتفصيلها ، وكان كذلك بالنسبة للهجرة عندما أرخ صرمة بن ابي قيس الانصاري لتلك الهجرة المباركة ، وتحدث عن موقف الانصار

النبيل من المهاجرين الذين حلوا في وسطهم مكـرمين معززين ، وعلى رأسهم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم :

ثوى في قريش بضع عشرة حجة
يذكر لو يلفى صديقا مواتيـا

ويعرض في أهل المواسم نفســـه
فلم يرمن يؤوي ولم ير داعيـا
فلما أتانا واستقرت به النوى
وأصبح مسرورا بطيبـة راضيا

وأصبح ما يخشى ظلامة ظالم
بعيد ولا يخشى من الناس باغيـا
بذلنـا له الاموال من جل مالنا
وأنفسنا عنـد الوغى والتآسيا

نعادي الذي عادى من الناس كلهم
جميعا وان كان الحبيب المواتيا

ونعلم أن اللـه لا شيء غـيره

وأن كتاب اللـه اصبح هاديـا

ويروى أن عبدالله بن عباس كـان يختلف الى صرمة الانصاري يتعلم منه هذه الابيات •

بهذه الروح الجديدة بني المجتمع الاسلامي ، وأقبل المؤمنون على حياتهم الجديدة،مخلفين وراء ظهورهم كل الذكريات المرة والايام الصعبة التي واجهوها في مكة ، فقام بجهودهم صرح الدولة الاسلامية الجديدة ، وعم نور الاسلام كل الناس •

شعر الوفود

في عصر النبوة

الوفد هم الركبان المكرمون . وقال الاصمعي : وفد فلان يفد وفادة اذا خرج الى ملك أو أمير .

وقال ابن سيدة : وفد عليه واليه يفد وفدا ووفودا ووفادة ، قدم فهو وافد . وجمع الوافد الوفود .

هذا هو المعنى اللغوي لكلمة الوفد . اما المعنى الاصطلاحي الذي نتحدث عنه هنا فهو الوفود الخاصة التي قدمت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم معلنة اسلامها بعد فتح مكة في عشر مضين من رمضان سنة ثمان .

قال أبو عبيدة : كان ذلك في سنة تسع ، وانما كانت تسمى سنة الوفود .

وقد أشار تعالى الى ذلك في قوله : « اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، انه كان توابا » .

وانما كانت العرب تربّص بالاسلام أمر هذا الحي من قريش ، وأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك ان قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم واهل البيت الحرام وصريح ولد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، وقادة العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلافه ، فلما افتتحت مكة ، ودانت قريش ، ودوخها الاسلام ، وعرفت العرب انه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا

عداوته ، فدخلوا في دين الله ، كما قال عزوجل أفواجا ، يضربون اليه من كل وجه .

وأول هذه الوفود هو وفد بني تميم ، وكان وفدا عظيما ، ولما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من وراء حجراته : أن اخرج الينا يا محمد ، يا محمد جئناك نفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا . قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل ، فقام عطارد بن حاجب فقال خطبته فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لثابت بن قيس : قم فأجب الرجل في خطبته . فقام ثابت فقال خطبته . ثم قام شاعر تميم الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا
منا الملوك وفينا تنصب البيع

وكم قسرنا من الأحياء كلهم
عند النهاب وفضل العز يتبع

ونحن يطعم عند القحط مطعمنا
من الشواء اذا لم يؤنس القزع
بما ترى الناس تأتينا سراتهم
من كل أرض هويا ثم تصطنع
فننحر الكوم عبطاً في أرومتنا
للنازلين اذا ما أنزلوا شبعوا
فلا ترانا الى حي نفاخرهم
الا استقادوا فكانوا الرأس يقتطع
فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه
فيرجع القوم والاخبار تستمع
انا أبينا ولا يأبى لنا أحد
انا كذلك عند الفخر نرتفع

وكان حسان غائبا ، فبعث اليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال حسان : جاءني رسوله ، فأخبرني انه انما دعاني لأجيب شاعِر تميم فخرجت . قال : فلما انتهيت الى رسول الله ـ ص ـ وقام شاعر

القوم فقال ما قال ، عرضت في قوله ، وقلت على نحو ما قال . فلما فرغ الزبرقان قال رســـول الله (ص) لحسان بن ثابت : قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال فقام حسان فقال قصيدته التي مطلعها :

ان الذوائب من فهر واخوتهـم
قد بينوا ســـنة للناس تُتبـع

ورويت قصيدة أخرى للزبرقان في هذه المناسبة مطلعها :

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا
اذا احتفلوا عند احتضار المواسم

وأجاب عنها حسان بقصيدة مطلعها :
هل المجد الا السؤدد العود والندى
وجـاه الملـوك واحتمـــال العظـائم

فلما فرغ حسان من قوله ، قال الاقـــرع بـن حابس ، وهو أحد رؤساء تميم : وأبي ان هذا الرجل

لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولاصواتهم أحلى من أصواتنا • فلما فرغ القوم اسلموا • وجوزهم رســول اللــه (ص) فأحسن جوائزهم •

والذي نلاحظه في هذه القصائد انهـا استمرار للفخر القديم ، وبخاصة اشعار وفد تميم فهي ذكـــر لانسابهم وامجادهم ، وقد سلك حسان سبيل المعارضة ولم يسلك سبيل المناقضة لانه ليس في معرض المهاجاة كما كان يفعل مع شعراء المشركين من قبـل ، والفـرق كبير بين المعارضة والمناقضة كما هو معروف • وتوالت بعد وفود تميم وفود عربية كثيرة ، وكانت كالآتي :

وفد بني عبدالقيس ، ووفد بني حنيفة ومعهـم مسيلمة الكذاب ، ووفد نجران واكثرهم من نصارى العرب ، ووفد بني عامر ، ووفد بني سعد ، ووفد طيء وعلى رأسهم الشاعر زيد الخيل الذي ســماه النبي (ص) : زيد الخير • ووفد زبيد ومعهم الشاعر عمرو

بن معد يكرب الزبيدي ، ووفد كندة وعلى رأسهم الاشعث بن قيس وكانوا ثمانين رجلا • ووفد الازد من اليمن فوفد حمير من اليمن أيضا • ووفد بني أسد وعددهم عشرة رجال ، ووفد بني عبس وعددهم تسعة رجال ، ووفد بني فزارة وعددهم بضع عشرة وبنو مرة وعددهم ثلاثة عشر ، وبنو ثعلبة وعددهم أربعة رجال ، وبنو محارب عشرة رجال ، وبنو كلاب ثلاثة رجال ، وبنو رؤاس ، وعقيل بن كعب وبنو قشير ابن كعب ، وبنو البكاء ثلاثون رجلا ، وبنو كنانة ، وبنو اشجع مائة رجل ، وبنو سليم سبعمائة رجل ويقال : الف ، وبنو هلال بن عامر ، وبنو بكر بن وائل وبنو ثعلب ستة عشر رجلا •

ثم وفدت وفود اليمن وهم جعفي وكندة والصدف وخشين وسعد بن هذيم والسباع •

هذه هي الوفود التي قدمت الى رسول الله (ص) بعد فتح مكة في العام التاسع والعاشر بعد الهجرة •

ويذكر المؤرخون قبل هذه الوفود وفدا كبيرا قصد رسول (ص) في المدينة من مضر ، وهم من مزينة وعددهم اربعمائة رجل ، وذلك في رجب سنة خمس ، فجعل رسول الله الهجرة في دارهم . وقال : انتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا الى اموالكم . فرجعوا الى بلادهم .

وحين ندرس تفصيلات وصول تلك الوفود الكثيرة كما وردت في كتب التاريخ يمكن ان نخرج بملاحظات هي :

١ ـ لم تكن كل الوفود جماعات من الرجال ، وانما وفد أحيانا رجل واحد يمثل قومه كما فعل جرير ابن عبدالله البجلي ووائل بن حجر بن ربيعة والحارث ابن حسان البكري .

٢ ـ أظهرت بعض الوفود احتراما زائداً لرسول الله (ص) وتبجيلا ظاهرا في سلوكهم يختلف عما وجدناه في وفد بني تميم . فحين قدم وفد بني عبد

القيس ورأوا رسول الله (ص) رموا بأنفسهم عن ركائبهم ، فمنهم من مشى ومنهم من هرول ومنهم من سعى حتى أتوا الرسول (ص) فأخذوا بيده فقبلوها •

٣ ـ لم تفد جميع الوفود طواعية أو مبادرة ، بل كان بعضها قد بعث اليهم رسول الله (ص) رسلا فعاد هؤلاء الرسل مع وفود تلك القبائل واعلنوا اسلامهم من ذلك وفد بني الحارث بن كعب بنجران بعث اليهم خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر سنة عشر ، فأقام عندهم خالد مدة ثم عاد ومعه وفد بني الحارث •

٤ ـ لم يكن جميع الوافدين من رجال القبائل العربية فحسب ، بل كان بعضهم رسلا لملوك العرب ، كملوك حمير اذ قدم على الرسول (ص) كتاب ملوكهم الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان ذي رعين وغيرهم •

كما بعث فروة بن عمرو الجذامي رسولا باسلامه ، ، وأهدى له بغلة بيضاء وكان فروة عاملا للروم على من يليهم من العرب في معان وما حولها من ارض الشام .

٥ ـ لم تكن جميع الوفود قد عزمت على الاسلام بلا تردد حين قدمت او أرسلت وافديها ، بل كان بعضها للاستعلام والاستفهام كما فعلت بنو سعد ابن بكر حين أرسلت رجلا منهم يقال له ضمام بن ثعلبة فقدم على الرسول واناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ثم دخل المسجد ورسول الله (ص) جالس في اصحابه ، وكان ضمام رجلا جلدا أشعر ذا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله (ص) في اصحابه ، فقال : أيكم ابن عبدالمطلب ؟ فقال رسول الله (ص) : أنا ابن عبدالمطلب . قال : أمحمد ؟ قال : نعم . قال : يا ابن عبدالمطلب ، اني سائلك ومغلظ عليك في

المسألة ، فلا تجدن في نفسك . قال : لا أجد في نفسي ، فسل عما بدا لك .

قال : أنشدك الله الهك واله من كان قبلك ، واله من هو كائن بعدك الله بعثك الينا رسولا ؟ قال : أللهم نعم . قال : فأنشدك الهك واله من كان قبلك واله من هو كائن بعدك ، الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الانداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال أللهم نعم . قال : فأنشدك الله الهك واله من كان قبلك واله من هو كائن بعدك،أ ألله أمرك ان نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال : أللهم نعم ، قال : ثم جعل يذكر فرائض الاسلام فريضة فريضة ، الزكاة والصيام والحج وشرائع الاسلام كلها ، وينشده عند كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها ، حتى اذا فرغ . قال : فاني أشهد أن لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله ، وسأؤدي هذه الفرائض ، واجتنب ما نهيتني عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص ، ثم انصرف الى بعيره راجعا .

فقال رسول الله (ص) : ان صدق ذو العقيصتين دخل الجنة •

فأتى قومه فاجتمعوا اليه فحدثهم عن الاسلام كما سمعه من رسول الله (ص) فأسلم جميع قومه •

٦ ـ اكثر الوفود كانت مؤلفة من زعماء قومهم ووجهائهم ، مما يشير الى تأثرها بالتقاليد القبلية والزعامات الجاهلية • فوفد بني تميم قدم فيه عطارد ابن حاجب من أشراف قومه ، ومنهم الاقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم ، وبنو عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وجبار بن سلمى ، وهؤلاء رؤساء القوم وشياطينهم ووفد طي معهم سيدهم زيد الخيل وكندة معهم سيدهم الاشعث بن قيس •

٧ ـ تشبثت بعض الوفود بعادات وتقاليد وأمور جاهلية لعدم ادراكهم حقيقة الدين الذي وفدوا لاعتناقه ، وتصورهم انه نوع من الاحلاف الجاهلية •

من ذلك طلب وفد ثقيف بأن يدع الرسول (ص) لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنين ، فلما أبى الرسـول ذلك ما برحوا يسألونه سنة سنة ، ويأبى عليهـم أن يدعها شيئاً مسمى ، كما سألوه أن يعفيهم من الصلاة ، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم • فقـال الرسـول (ص) : اما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة ، فانه لا خير في دين لا صلاة فيه •

وحين وفد بنو حنيفة اشترط مسيلمة على رسول الله (ص) وسأله أمورا • فقال له رسول الله (ص) : لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتكه • وكـان معـه عسيب من سعف النخل •

وقد واكب الشعر حركة الوفود في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الاسلام اذا اصطحب كثير من تلك الوفود شعراءهم ليتحدثوا بلسانهم بين يدي رسـول الله (ص) وقد رأينا قصيدتي الزبرقان بن بدر التميمي اللتين تحدث فيهما بلسان وفد تميم • ومع ذلك فان

ما وصل الينا من تلك الاشعار قليل نسبيا ، ولكنه يمثل ما قيل في تلك المناسبة أصدق تمثيل .

وهو موزع بين احدى عشرة قبيلة هي :

ثقيف ونخع والازد وهمدان ورها واسد وعبد القيس وحران ونجران وكلب وكندة .

وقد تطرق شعراء الوفود الى موضوعات عديدة يمكن اجمالها كالآتي :

المدح :

وهو اكثر الموضوعات ترددا في أشعار الوفود ، وقد اقتصر على مدح رسول الله (ص) ، وهذا طبيعي ومناسب لطبيعة تلك الوفود ودوافع قدومها .

ويمكن تقسيم هذا المدح الى نوعين :

المدح بمعان ومناقب اسلامية جديدة تتناسب مع المفاهيم الاسلامية الجديدة ، مثل تبليغ الرسالة وصدقها وهدايتها ، ودعوتها الى الحق ، وتشريعاتها النافعة . قال جهيش بن أويس النخعي :

الا يا رسول اللـه أنت مصدق
فبوركت مهديا وبوركت هاديا
شرعت لنا دين الحنيفة بعـد ما
عبدنا كأمثال الحميـر طواغيا

وقال عائذ بن سلمة الازدي :

رأيتك يا خـير البريـة كلهـا
نشرت كتابا جاء بالحـق معلما
شرعت لنا فيه الهدى بعد رجعنا
عن الحق لمـا أصبح الامر مظلما

والنوع الثاني هو المدح بمآثر جاهلية وبقيم كان يجلها العرب ويحترمونها ، كالكـرم والشـجاعة وشرف النسب . قال الاسود الثقفي :

أنت الرسول الذي ترجى فواضله
عند القحوط اذا ما أخطأ المطـر

وقال مالك بن نمط الهمداني :

فما حملت من ناقة فوق رحلهـا
أشدّ على أعـدائه مـن محمد
وأعطى اذا ما طالب العرف جاءه
وأمضى بحـــد المشرفي المهنـد

وقال قطن بن حارثة العليمي :

أغـر كأن البـدر سنة وجهـه
اذا ما بدا للناس في حلل العصب
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه
ورشت اليتامى في السغابة والجدب

الفخر :ـ

وهو كالمدح من حيث المناقب والمعاني التي فخر بها الشعراء ، فمنها الاسلامية التي استلهمت قيـم الاسلام وأفكاره ، كقول الاسود الثقفي :ـ

أمسيت أعبد ربي لا شريك له
رب العباد اذا ما حصل اليسر

ومنها الجاهلية القديمة التي يزخر بها فخر الجاهلية ، كقول عطارد بن حاجب :

اتيناك كيما يعلم الناس فضلنا
اذا اجتمعوا وقت احتضار المواسم

وانا فروع الناس في كل موطن
وان ليس في أرض الحجاز كدارم

الوصف :

ومن الاغراض التي تطرق اليها شعراء الوفود الوصف ، وبخاصة وصف الرحلة التي أوصلتهم الى رسول الله (ص) ، وما لاقوه من مصاعب ومشاق وهم يقطعون تلك الرحلة ، وقد يتطرقون الى وصف الراحلة وينعتونها أحسن النعوت لكي تكون مناسبة مع عظيم القصد وشرف الغاية من تلك الرحلة . وتتكرر تلك اللوحات والصور عند اكثر شعراء الوفود ، وهي لوحات قديمة في الشعر العربي كما هو معروف ، وربما

كانت احدى لوازم المدح في الشعر الجاهلي ٠ من ذلك قول الجارود :

يا نبي الهدى أتتك رجال
قطعت فدفداً وآلاً فآلا

وطوت نحوك الضحاضح طراً
لا تخال الكلال فيه كلالا

كل دهناء يقصر الطرف عنها
بكماة كأنجم تتلالا

ومن تلك الاوصاف قول عمرو الرهاوي :

اليك رسول الله أعملت نصها
تجوب الفيافي سملقا بعد سملق

وقدم مالك بن نمط الى رسول الله (ص) مع وفد همدان ، ووقف بين يدي رسول الله (ص) مرتجزا وهو يقول :

اليك جاوزن سـواد الريـف
في هبـوات الصيـف والخريف
مخطمات بخطام الليف

وقال خفاف بن نضلة الثقفي :

اني أتاني فـي المنـام مخبـر
من جن وجرة في الامور موات
يدعو اليـك ليالـيا ولياليـا
ثم احزأل وقال : لسـت بآت
فركبت ناجيـة أضرّ بمتنهـا
جمر تحـتّ به على الاكمـات
حتى وردت الى المدينة جاهـدا
كيما أراك فتفـرج الكربـات

ويروى ان النبي (ص) استحسنها وقال : ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكمة .

اما الخصائص الفنية التي يمكن أن نلمسها في أشعار الوفود فهي :

١ ـ غلبة المقطعات :

فأكثر الاشعار التي وصلت الينا مقطعات قصيرة مكونة من بيتين او ثلاثة ، وهي لا تزيد على سبعة أبيات في جميع ما لدينا من نصوص •

٢ ـ انه شعر شعراء مغمورين :ـ

لو تفحصنا أسماء شعراء الوفود لوجدناها اسماء مغمورة غير معروفة في طبقات الشعراء ، أنطقتهم المناسبة ببضعة أبيات قد لا يكون لهم غيرها في كتب التاريخ والادب ، باستثناء شاعر واحد هو الزبرقان بن بدر الذي تحدث في شعره باسم تميم ، فهو شاعر معروف •

٣ ـ البعد عن التكلف والتصنع :

يغلب على ما بين أيدينا من شعر الوفود البعد عن العقل والتهذيب والمراجعة وخلوه من التكلف ،

فهو بمجموعه مشاعر آنية جاشت في صدور أصحابها فأنطقتهم أبياتا سهلة بسيطة واضحة المعنى •

٤ ـ صور وقوالب جاهلية :

معظم صور وقوالب تلك الاشعار صور وقوالب جاهلية ، ولولا بعض الالفاظ الاسلامية لما أمكن تمييزها عن الاشعار الجاهلية • وهذا طبيعي فشعراء الوفود معظمهم لم يعلن اسلامه بعد ومن أسلم منهم فهو لم يتمثل الاسلام بعد •

تجربة الايام لـدى المعمرين

مـن شـعراء صـدر الاسـلام

المعمرون من الشعراء هم الشيوخ الذين طالـت أعمارهم ، وامتدت بهم الحياة ، فادركـوا أجيـالا متعاقبة ، وعاصروا أحداثا متتابعة ، فانطلقت السنتهم بالاشعار التي اودعوها مر شكواهم من طول الحياة ، وعبّروا فيها عن سوء المنقلب والمصير الذي وصلوا اليه . وقد حدد بعض الشعراء الجاهليين عمر المعمـر بالسبعين ، فقال :

يا أيها الرجل الموكل بالصـبا
فيم ابن سبعين المعمر مـن دد

ولكن العرب لا تعد من الاعمار الطويلة الا ما بلغ مائة وعشرين سنة فما فوقها .

وقد تحدث القرآن الكريم عن تلك الفترة من حياة المعمرين ، فرسم للمعمر صورة شبيهة بصورة الصبي الصغير ، من حيث ضعف جسده ، وقلة عقله ، وخلوه من الفهم ، قال تعالى : « ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون » .

قال الطبري : وتنكيس الخلق ، قلبه وجعله على عكس ما خلقه أولا ، وهو أنه خلقه على ضعف في جسد ، وخلو من عقل وعلم ، ثم جعله يتزايد وينتقل من حال الى حال الى أن يبلغ أشده ، وتستكمل قوته ويعقل ويعلم ماله وما عليه ، فاذا انتهى نكسه في الخلق ، فيتناقض حتى يرجع الى حال شبيهة بحال الصبي .

وقال تعالى : « ومنكم من يرد الى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً » .

قيل : الى أخسه وأحقره ، لانه لا عمر أسوأ حالا من عمر الهرم الذي يصير فيه الانسان في حالة تشبه

حال الطفولة في النسيان ، وان يعلم شيئاً ثـم يسرع نسيانه فلا يعلمه ان سئل عنه •

قـال الامـام علي (رض) : أرذل العمـر خمس وسبعون سنة وكان الرسول (ص) يستعيذ من الهرم •

ولو تتبعنا أشعار هؤلاء المعمرين لاسـتطعنا أن نلمح تجارب وصورا تتكرر في كثير من أشعارهم •

ومن أبرز تلك التجـارب والصـور ادراكهـم العصور المختلفة ، والقرون الغابرة ، والامم البـائدة ، والاحداث الموغلة بالقدم ، كذي القرنين وتبّع ، يقول شريح بن هانيء بن يزيد بن نهيك مرتجزا قبـل أن يقتل غازيا مع عبدالله بن ابي بكرة بسجستان :

أصبحت ذا بثّ أقاسي الكبرا
قد عشت بـين المشركين أعصرا

ثمـت أدركـت النبي المنـذرا
وبعـده صدّيقه وعُمـرا

ويــوم مهــران ويـــوم تسترا
والجمع في صفينهم والنهـــرا
وقال عمرو بن حممة الدوسي :
كبرت وقد طال العمر مني كأنني
سليم أفاعٍ ليـــلة غيــر مودع
وما السقم أبلاني ولكن تتابعت
عليّ سنون من مصيف ومربع

الى أن يقول :

أخبر أخبار القرون التي مضت
ولابد يوما أن أطـــار لمصرعي

وقال لبيد بن ربيعة العامري :

أليس ورائي ان تراخت منيتي
لزوم العصا تحنى عليها الاصابع
أخبر أخبار القرون التي مضت
أدبّ كأني كلما قمت راكـــع

فأصبحت مثل السيف غيرّ جفنه
تقادم عهد القين والنصل قاطع

وحين ادخل عرام بن المنذر بن زيد الطائي على الخليفة عمر بن عبدالعزيز ليكتب في الزمنى قال له عمر : ما زمانتك هذه ؟

فأنشد قائلا :

والله ما أدري أأدركت أمة
على عهد ذي القرنين أم كنت أقدما
متى تنزعا عني القميص تبينا
جآجىء لم يكسين لحما ولا دما

ومن تجاربهم الانسانية الصادقة ، وصورهم الواقعية الرائعة شعورهم بالغربة ، واحساسهم بالوحدة الموحشة ، بعد أن غيبت الارض جميع أخوانهم ، واختطف الموت كل أقرانهم واخوانهم ، فعندما وفد عمرو بن عامر السلمي على معاوية ، وهو يرتعش كبرا قال له معاوية : كيف تجدك ؟

قال : اجتنبت النساء وكن الشفاء ، وفقـــدت المطعم وكان المنعم ، وثقلت على الارض ، وقرب بعضي من بعض ، فنومي ســبات ، وفهمي هبّات ، وســمعي تارات ، وأنشد :

اذا ذهب القرن الذي أنت فيهم
وخلّفت في قــرن فأنت غريب
وما للعظام الباليات من البـلى
شـــفاء ولا للركبتــين طبيــب
وان امرأ عاش ستا وتسعين حجة
الى منهــل مــن ورده لقريب

فقال له معاوية : فما تريد ؟

قال : عشرة آلاف أقضي بهـــا دينـي ، وعشرة آلاف أقسمها في أهلي ، وعشرة آلاف أنفقها في بقية عمري ، فأعطاه ورحل •

ويحس جعفر بن قرط العامري بثقل الوحـــدة

القاتلة ، فيحاول الفرار منها الى الموت ، ويعرض ما تبقى من حياته على من يشتريها منه فيقول :

لم يبق يا خـذلة من لـداتي
أبـو بنـين لا ولا بنـات
من مسقط الشمس الى الفرات
الا يعد اليـوم فـي الاموات
هل مشتر أبيعه حياتي ؟

وطالما شكا المعمرون طول أعمارهـم ، وملوا حياتهم ، وسئموا عيشهم الرتيب ، يقول لبيد بن ربيعة العامري :

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس كيف لبيد

ويقول ربيعة بن مقروم :

ولقد أصبت من المعيشة لينهـا
وأصابني منه الزمـان بكلكـل

لاذا وذاك كـأنـ لـم يكـن
الا تذكّـره لمن لـم يجهـل

ولقد أتت مائـة عليّ أعـدها
حولاً فحولاً ان بلاهـا مبتلي

فاذا الشباب كمبـذل انضيتـه
والدهر يبلي كل جدة مبـذل

وتمنى كثير من المعمرين الموت ، وآثروا مفارقة الحياة لما كانوا يرون فيها من تأذي الاقارب بهـم ، وتجنبهم اياهم ، وابتعادهم عنهم ، وفرارهم منهـم ، يقول حارثة بن عبيد الكلبي بعد أن حجبه أهله لتقدم سنه :

ألا يا ليتنـي أنضيت عمـري
وهل يجـدي عليّ اليوم ليتي

حنتني حانيـات الدهر حتـى
بقيت رذية فـي قعـر بيتي

تأذى بي الاقــارب اذ رأوني
بقيت ، وأين مني اليوم موتي

وفقد عمارة بن عوف العدواني بصره ، وخـرف وأولع بالهذيان ، فقال :

عمرت دهــرا ثم دهــرا وقــد
آمل أن آتــي علــى دهـــري

فان أمت فالموت لــــي خـيرة
من قبــل أن أهــذي ولا أدري

خمسون لي قد اكملت بعــد ما
ساعدني قرنان مـــن عمـري

وأودع بعضهم خلاصة تجاربهم مـــن حكمـة الحياة ، فاستسلموا لصروف الدهر وانقادوا لمصائبه ، وآمنوا بسنة الحياة في استحالة الخلود ، قال الحارث بن أبي وجرة :

كبرت وأبلتني الليالي ومن يعش
كما عشت يصبح ذا وساوس مقعدا
وقصري وان عمرت عشرين حجة
فنـاء ولا يبقـي الزمان مخلدا

وقال ثور بن تلدة الاسدي :

وان امرءاً قد عاش عشرين حجة
الى مائتين كلهـا هـو دائـب
لرهن لأحداث المنايـا ، وانمـا
تـلهيه في الدنيا مناه الكواذب

وأنكر المعمرون انفسهم ، وداخلهم الريب ، وهم يرون الهرم يستبد في اوصالهم ، والشيخوخة تأكـل اسماءهم فلا يدعون بها ، والطعام يكفيهم القليل منه ، والليل وقد فقدوا حلاوة السهر فيه .

وافزعهم عزل الحليلة لهم ، وابعاد بنيهم عنهم ، يقول النمر بن تولب العكلي :

لعمري لقد انكرت نفسي ورابني
مع الشيب أبدالي التي أتبدل
وتسميتي شيخا وقد كان قبله
لي اسم فلا أدعى به وهو أول
وزهدي فيكفيني اليسير وانني
أنام اذا أمسي ولا أتعلل
وظلعي ولم أكسر وان حليلتي
تحوز بنيها في الفراش وأعزل

وان كان الهرم قد أوهى قواهم ، فانه لم يوهن عزائم بعضهم ، وما كان له أن يثنيهم عن بلوغ أمانيهم ، وتحقيق آمالهم في الجهاد ، فهم لا يريدون أن يصدقوا بانهم قد شاخوا وعجزوا ، وأن الوهن قد دب في أوصالهم ، والضعف قد سار في أعضائهم .

وخير من يمثل هذا الفريق من المعمرين جروة بن يزيد الطائي ، الذي كان يكثر الغزو وهو شيخ كبير ، ومن أقواله :

تلوم حليلتي بالغــزو جهــلا
وغيــر الغـــزو أولـى بالمــلام
ولولا الغزو كنت كمن يُغادى
بأنــواع الشــبارق والمــدام
قليل الهم يزهد فــي المعــالي
ويرضى بالقليل مــن الطعــام
فهمــي غيــر همّك ، فاتركيني
وغزوي ، انه هــمّ الكـــرام
سأغزو الترك ان لهــم عرامــا
وبأسا حــين تزحــف للزحــام

الى ان يقول :

وقالت : قد كبرت • فقلت كلا
ورب البيت والشهر الحــرام
لقد أبطلت ما كبري بمـــدنٍ
الــي حليــلتي قــدر الحمـــام

سأغزو أو أمـوت كـذا خفاتا
ولا آتـــي بـداهيـــة وذام

وقال لامرأته مصورا عذاب عتابها وعذلها له :

وقالت : قد كبرت • وقلت حقا
كبرت • فكفكفي ودعي عتابي
عتابك كل يـوم لـي عـــذاب
ومثلي لا يقـر على العـــذاب
فان لم تصبري وكـرهت قربي
فدونك ما أردت مـن اجتنابي

وقال مفتخرا بقوته مع تقدم سنه ، الذي لم يزده الا تصميما على القتال والجهاد في سبيل الله :

لعمري وقد جاوزت تسعين حجة
وتسعين أرجو أن اعمرها عـدا
فما زادني صبري على ما ينوبني
من الدهر ضعفا لا ، ولا كدّ لي زندا

وأرجو وأخشى أن أموت ولم أقم ..
تخادعني بيض ضربنا بها السُغدا
أذلت لنا أركانهم بعد عزة
وكانوا أباة حين تعلقهم صمدا
فلا تهزئي منا ولا تتعجبي
فلستُ أرى مما قضى الله لي بُدّا

ولعل من أنجح الصور التي رسمها هؤلاء الطاعنون في السن ، وأروع اللوحات التي أبدعها فنهم الشعري الواقعي ، وهم في تلك السن المتقدمة ، ما انطلقت به ألسنتهم من وصف أحوالهم ، وابراز آيات الكبر التي تفصح عن حقيقة أعمارهم وطبيعة حياتهم التي أفناها طول العمر ، وهدّها كرّ السنين وتوالي الاحداث .

فعندما دخل الخيار بن أوفى النهدي على معاوية قال له معاوية : يا خيار ، كيف تجدك؟ وما صنع بك الدهر ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، صدع الدهر قناتي وأثكلني لداتي ، وأوهى عمادي وشيب سـوادي ، واسرع في تلادي . ولقد عشت زمنا أصبي الكعاب وأسر الاصحاب ، وأجيد الضراب ، فبان ذلك عني ، ودنا الموت مني وأنشأ يقـول ، معتمـدا الصـور المتضادة :

جريت زمانا يرهب القرن جانبي
كأني شتيم باسـل القلب خـادر
يخاف عدوي صولتـي فيهابني
ويكرمني قرني وجاري المجاور

وتصبي الكعاب لمتي وشمائلي
كـأني غصن ناعـم النبت ناضر
ثم عرض صورا مضادة لتلك الصور فقال :

فبـان شبابي واعترتني رثيـة
كأني قنـاة أطرتهـا المـآطر

أدب اذا رمـــت القيـــام كأنني
لدى المشي قــرم قيده متقاصر
وقصر الفتى شيب وموت كلاهما
له سائق يسعى بـــذاك وناظـر
وكيف يلذ العيش من ليس زائلا
رهين أمور ليس فيهـــا مصادر

فقال معاوية : أحسنت القول ، وأعلم أن لهـــا مصادر ، فنسأل الله أن يجعلنا من الصادرين بخير ، فقد أوردنا أنفسنا موارد نرغب الى الله أن يصدرنا عنها وهو راضٍ .

وحين سأل معاوية خنابة بن كعب العبشمي : كيف نفسك اليوم ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، أمتعني الله بك :

عليّ لسان صـــارم ان هززته
وركني ضعيف والفـؤاد موفّر

كبرت وأفنى الدهـر حولي وقوتي
فلم يبق الا منطـق ليس يهـــذر

وبين الحشـا قلـب كمي مهـذب
متى ما يرى اليوم العشترر يصبر
أهـــمّ بأشـياء كثـير فتعتقـي
مشيئة نفس ، انهـا ليس تقـدر

تلعبـت الايـام بـي فتـركنـي
أجـّب السنام حائـراً حين أنظـر
أرى الشخص كالشخصين والشيخ مولع
بقول أرى ـ والله ـ ماليس يُبصر

ولما سُئل الهيثم بن الاسود النخعي : كيــف تجدك ؟

قال : أجدني قد ابيض مني ما كنت أحب أن يسودّ ، واسودّ مني ما كنت أحب أن يبيض. ثم انشد مجموعة من الصور القصيرة المتتابعة فقال :

اسمع أنبئك بآيات الكبر
تقارب الخطو وسوء في البصر
وقلة الطعم اذا الزاد حضر
وكثرة النسيان لما يُذَّكر

ويبلغ عدي بن حاتم الطائي غاية الصدق ، ويصل الى درجة عالية من الجمال الفني ، وهو يعرض أحاسيسه ، فيقول :

فاني قد كبرت ورقّ عظمي
وقل اللحم من بعد النقاء
وأصبحت الغداة أريد شيئاً
يقيني الارض من برد الشتاء
وطاء يا بني ثعل بن عمرو
وليس لشيخكم غير الوطاء
فان ترضوا به فسرور راضٍ
وان تأبوا فاني ذو اباء
سأترك ما أردت لما أردتم
وردّك من عصاك من العناء

وحين وقع بينه وبين المختار أمر تشاجرا عليه ، همّ بالخروج اليه ثم عجز عن ذلك ، فقال :

أصبحت لا أنفع الصديق ولا
أملك ضرا للشانىء الشرس
وان جرى بي الجواد منطلقا
لم تملك الكف رجعة الفرس

ويرسم أبو الطمحان القيني صورة رائعة لنفسه ، وقد بلغ من العمر عتيا ، فيقول :

حنتني حانيات الدهر حتى
كأني خاتل يدنو لصيد
قريب الخطو يحسب من رآني
ولست مقيدا أني بقيد

ان النماذج الشعرية التي خلفها لنا المعمرون تعد بحق ثروة أدبية ، وبعدا انسانيا أضافه أولئك الشعراء الى تراثنا الشعري الواقعي ، فقد كانت تلك الاشعار تعبر عن واقع حياتهم ، وحقيقة أحاسيسهم .

ولكن الملاحظ على تلك الاشعار انهـا تفتقر الى النظرة الاسلامية النافذة وعدم تمكن الشعراء مـن تمثل الافكار التي دعا اليها الاسلام بشأن حقيقة الحياة والموت ، وصلة الاعمار بالارادة الالهية ، مع معالجـة القرآن الكريم لهذه القضية في مثل قوله تعالى :

« وما يعمر من معمر ، ولا ينقص من عمره الا في كتاب ، ان ذلك على الله يسير » .

وتحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال :

ألا أنبئكم بخياركم ؟

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : أطولكم أعمارا في الاسلام اذا سددوا .

وقال الحسن رضي الله عنه : أفضل الناس ثوابا يوم القيامة المؤمن المعمر .

« أضواء جديدة على سيرة حسان بن ثابت »

شاعر الاسلام حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن زيد مناة من بني النجار من الخزرج • كنيته أبو الوليد ، وابو عبدالرحمن ، وابو المضرب ، وابو الحسام لمناضلته عن رسول الله (ص) •

كان أبوه من سادة قومه وأشرافهم ، وجده المنذر كان الحاكم بين الاوس والخزرج في يوم سميحة وهو أول يوم سالت فيه الدماء بين الاوس والخزرج •

عمر حسان مائة وعشرين سنة ، ستين في الجاهلية وستين في الاسلام • وقد فضل الشعراء بثلاث : كان شاعر الانصار في الجاهلية ، وشاعر النبي (ص) في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الاسلام •

وقال أبو عبيدة : اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدر أهل يثرب ، ثم عبدالقيس ثم ثقيف ، وعلى أن أشعر أهل يثرب حسان بن ثابت •

وحسان من أسرة معرقة في الشعر ، ورث الشعر عن آبائه ، وأورثه الى أبنائه من بعده • قال المبرد : وأعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان ، فانهم يعتدون ستة في نسق كلهم شاعر ، وهم سعيد بن عبدالرحمن ابن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام •

وأختاه خولة وفارعة شاعرتان وابنته ليلى شاعرة أيضا •

ولما تمتع به حسان من منزلة رفيعة عند رسول الله (ص) ومكانة مرموقة لدى المسلمين جميعا ، تعرّض لاتهامات كثيرة وخطيرة باطلة ، روجها خصومه العقائديون كمسلم ، والقبليون كأنصاري والتقليديون كشاعر كبير ذي مكانة مرموقة ، والسياسيون كصاحب رأي خالف به أحزابا سياسية كانت قائمة في عصره ، وبعد عصره •

وسأحاول في هذه الصفحات القاء الضوء على أبرز تلك الاتهامات التي ألصقت به وهي «الجبن» فقد أورد خصومه في ذلك روايات رددها الآخرون عن

الاولين ، فتواترت واستنتج منها الخصوم على حسب أهوائهم .

وقد اعتمد هؤلاء جميعا روايتين في ذلك :

الاولى ما ذكره ابن اسحاق في سيرته النبوية ، قائلا نقلا عن يحيى من أحفاد عبدالله بن الزبير « يعني يوم الخندق » كانت صفية بنت عبدالمطلب في فارع ، حصن حسان بن ثابت ، قالت : وكان حسان بن ثابت معنا فيه ، مع النساء والصبيان ، قالت صفية : فمرّ بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله (ص) ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله (ص) والمسلمون في نحور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم الينا ان أتانا آت ، قالت : فقلت : ياحسان ، ان هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن ، واني ـ والله ـ ما آمنه أن يدلّ على عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله (ص) وأصحابه ، فأنزل اليه فاقتله . قال : يغفر الله لك يا ابنة عبد

المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا .
قالت : فلما قال لي ذلك ، ولم أر عنده شيئاً ، احتجزت « شددت وسطي » ثم أخذت عمودا ، ثم نزلت من الحصن اليه ، فضربته بالعمود حتى قتلته . قالت : فلما فرغت منه ، رجعت الى الحصن فقلت : ياحسان انزل اليّ فاسلبه ، فأنه لم يمنعني من سلبه الا أنه رجل . قال : مالي بسلبه من حاجة يا ابنة عبدالمطلب .

وهذا الخبر ضعيف ، فقد انفرد به ابن اسحاق ، وكل من ذكره أخذه عنه . فأبو الفرج الاصفهاني حين أورد هذه القصة أسندها الى ابن اسحاق وبالسند نفسه ايضا . الا أنه أورد رواية عن مصعب بن الزبير ليس فيها ما ذكره ابن اسحاق من احجام حسان قال : جاءنا يهودي يرتقي الى الحصن فقالت صفية له (أي حسان) أعطني السيف ، فأعطاها فلما ارتقى اليهودي ضربته حتى قتلته ثم احتزت رأسه فأعطته لحسان وقالت طوح به فأن الرجل أقوى واشد رمية من المرأة . تريد ان ترعب به أصحابه .

الى هنا ينتهي الخبر وليس فيه ما يعيب حسان .

اما ابن سلام الجمحي(ت ٢٣١هـ)وهو من أصدق الرواة ، وأنقد النقاد ، فلم يتطرق الى جبن حسان حين ترجم له ولم يذكر ما ذكره ابن اسحاق او ابو الفرج الاصفهاني في هذه القصة ، ولم يورد هذه القصة ابن قتيبة في ترجمة حسان أيضا . ولا ابن عبد البر الاندلسي وهو محدث ثبت ، وكل ما ذكره بهذا الشأن تضعيف لهذه الرواية قال : وذكروا من جبنه أشياء مستبشعة رووها عن ابن الزبير أنه حكاها عنه ، كرهت ذكرها لنكارتها ، فهو منكر لها اذن .

وابن حجر العسقلاني ينقل الخبر عن ابن اسحاق أيضا فيقول : روى ابن اسحق في المغازي .. الخ .

ومعروف أن ابن اسحاق غير ثقة في كثير مما يرويه ، وقد ضعفه العلماء ، والخبر الذي رواه منقطع الاسناد . قال السهيلي : ويُحمل هذا الحديث عند الناس على أن حسانا كان جبانا شديد الجبن ، وقد دفع

هذا بعض العلماء وأنكره ، وذلك أنه حديث منقطع الاسناد ، وقال : لوصح هذا لهجي به حسان •

ولو افترضنا صحة هذه القصة فهل لا يمكن حملها الا على جبنه ؟ أقول : قد يكون حسان مصابا في ذلك اليوم بعلة أقعدته عن حضور القتال ، ولو لم يكن كذلك كما تخلف عن شرف الجهاد مع رسول الله (ص) ، وقعد مع النساء والصبيان ، والمعذرين من الرجال ، فمن يتخلف عن شهود شرف الجهاد لا يمكن أن يحمل سيفا ويقاتل رجلا مقابلة ، وهو ما طلبته منه السيدة صفية بحسب ما ورد في هذه القصة •

أما احجامه عن سلب سلاح اليهودي بعد أن قتلته السيدة صفية ، فلا أرى غرابة في ذلك ، بل هو العقل والمنطق ، فليس من شهامة أي عربي أن يقبل سلب سلاح رجل عجز عن قتله بنفسه ، وقتلته امرأة ، فهذا السلب يستطيعه أي صبي او امرأة من المسلمين •

وقد يرد القول الم تعرف السيدة صفية علة حسان مقدما ؟ فلماذا استنجدت به ؟ وجواب ذلك

أن المـرأة المسلمة مضطرة الى الاستعانة بالرجل المسلم فأن لم يستجب كان لها العـذر في منـازلة الرجـال الاعداء .

والرواية الثانية التي روجها خصوم حسـان ما ذكره صاحب الاغاني قال : انه وهـو في فارع مـع النساء والصبيان يوم الخندق كان ضاربا وتدا في آخر الاطم ، فاذا حمل أصحاب رسـول اللـه (ص) على المشركين حمل على الوتد فضربه بالسيف ، واذا أقبل المشركون انحاز عن الوتد ، حتى كـان يقاتل قرنـا ، يتشبه بهم ، كأنه يرى أنه مجاهد حين جبن .

وهذا الخبر ـ ان صح ـ لايمكن أن يكون دليلا على جبن حسان ، فعمله ذلك مشاركـة وجـدانية للمسلمين المقاتلين ، ولاشباع رغبة صادقة في نفسه ، وليتهيأ لمعركة الشعر التي كان يقود لواءهـا ضـد المشركين في كل معركة يعجز عن المشاركة فيها بسيفه لعلة مصاب بها . وقد روى جابر قال : كنا مـع النبي (ص) في غزاة فقال : ان بالمدينة لرجـالا ما سرتـم

مسيرا ، ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم ، حبسهم المرض ، وفي رواية : حبسهم العذر •

أما ما روي بأن حسان كان يخضب شاربه وعنفقته بالحناء ، ولا يخضب سائر لحيته ، فقال له ابنه عبدالرحمن يا أبت لم تفعل هذا ؟ قال : كأني والغ في دم ، فتفسيره نفسي أيضا ، ولا دليل فيه على جبن •

ونضيف الى ذلك :

١ ـ ان جميع الروايات التي رددها متهمو حسان كانت بعد اسلامه ، اي بعد تجاوزه الستين عاما ، فهل يطلب من رجل تجاوز الستين ان يشترك في القتال بيده ؟ قد يكون هذا السن مقعدا لصاحبه عن الاشتراك في القتال •

٢ ـ وردت روايات صادقة ثبت أن حسان لم يكتف في الدفاع عن الاسلام بلسانه ، بل دافع بنفسه ويده ، ولابد أن يكون ذلك قبل العلة التي أقعدته عن الحرب ، فقد قال سعيد بن جبير : كنا عند ابن عباس ،

فجاء حسان ، فقالوا : قد جاء اللعين من الشام . فقال ابن عباس : ما هو بلعين ، لقد نصر رسول الله (ص) بلسانه ويده ، وفي رواية أخرى : ما هو بلعين ، لقد جاهد مع رسول الله (ص) بلسانه ونفسه ، قال الذهبي : قلت هذا دال على أنه غزا . ومعروف أن ابن عباس لم يكن على وفاق مع حسان في رأيه السياسي .

٣ ـ لقد هاجى حسان جمعا كبيرا من الشعراء وعيَّر خصومه بالوقائع والايام ، فلم نر أحداً منهم يرميه بالجبن ، على الرغم من شدة أعدائه عليه ، وقسوة حساده في هجائه ، وقد عبر حسان بنفسه عن ذلك فقال :

ويعلم أكفائي من الناس أنني
أنا الفارس الحامي الذمار المناجد
وما وجد الاعداء في غميزة
ولا طاف لي منهم بوحشي صائد
وان لم يزل لي منذ أدركت كاشح
عدو أقاسيه وآخر حاسد

وقد أجمع النقاد أن طريقته في هجاء خصومه المشركين تعتمد تعييرهم بالوقائع والايام • قال ابن سيرين : فكان يهجوهم (المشركين) من الانصار حسان ابن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة • فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم في الوقائع والايام والمآثر ، ويذكران مثالبهم ، وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر • قال : فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الاسلام ، كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة •

ويزخر ديوان حسان بالاشعار التي هجا فيها خصومه بهذه الطريقة ، منها قوله في ابي سفيان بن الحارث وكان هجا النبي (ص) قبل الاسلام :

لنا في كل يوم من معد
سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا
ونضرب حين تختلط الدماء

الا أبلغ أبـــا ســـفيان عنـــي
فأنت مجوف نخـــب هـــواء
بأن سيوفنـــا تركتـــك عبـــداً
وعبدالدار ســادتها الامــــاء

وعندما فر الحارث بن هشام في بدر عن أخيـه ابي جهل بن هشام عيّره قائلا :

ان كنت كاذبة الـــذي حدثتني
فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الاحبة أن يقاتـــل دونهـــم
ونجـــا برأس طمـــرة ولجـــام

فما الذي أسكت أبا سفيان والحارث عن تعييره بما عيرهما به وبما عير به غيرهما لـــو كـــان جبانـــا ؟ يقول الاصمعي : الدليل على أن حسان لم يكن جبانا ، أنه كان يهاجي خلقا فلم يعيره أحد منهم بالجبن وقال ابن عبد البر : وأنكر بعض أهل العلم بالخير ذلـــك (أي جبنه) وقالوا : لو كان حقا لهجي به ، فأنه قد

هجا قوما فلم يهجه أحد منهم بالجبن ، ولو كان ذلك لهجي به .

وطالما صال وجال مفتخرا بالشجاعة ، مؤكـــدا اقدامه وذوده بالحسام ، من ذلك قوله :

اللـه أكرمنــا بنــصر نبيــه
وبنــا أقــام دعائــم الاسلام
وبنــا أعــز نبيّــه وكتابــه
وأعــزنــا بالضرب والاقــدام
في كل معترك تطــير سيوفنا
فيه الجماجم عن فــراخ الهــام

الى أن يقول :

ما زال وقع سيوفنا ورماحنــا
في كــل يــوم تجالــد وترام
حتى تركنا الارض سهلا حزنها
منظومة مــن خيلنا بنظـــام

وحين فخر الزبرقان بن بدر في وفد تميم انبرى له حسان يجيبه بلسان صارم ، واسلوب لا يمكن أن

يعتمده جبان ، او ينطق به من وصم بالخور او الضعف ، فيقول :

نصرناه لما حلَّ وسط رحالنا
بأسيافنا من كل باغ وظالم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا
على دينه بالمرهفات الصوارم

٤ ـ ان الجبن الذي وصف به حسان لا يتناسب مع مكانة الشاعر الذي تبوأ منزلة رفيعة بعد الاسلام

وأطلق عليه شاعر رسول الله (ص) وقد احله رسول الله (ص) منزلة كبيرة لا تدانيها منزلة شاعر آخر وقد وضع له منبر في مؤخرة مسجد رسول الله (ص) ينافح منه عن رسول الله (ص) .

وكان رسول الله (ص) يقول له : ان روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله (ص).

وروي أن جبريل أعان حسان عند مدحه النبي (ص) بسبعين بيتا . وليس من حكمة النبوة أن يختار

الرسول (ص) شاعرا ينطق باسمه وهو مغموز بالجبن الذي كان من أكبر النقائض الفاضحة ومن أبرز العرر الواضحة ، بينما شعراء المشركين الذين كان يهاجيهم أبطال محاربون كابن الزبعري وضرار بن الخطاب وأبي سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص .

٥ ـ كان رسول الله (ص) إذا قدم من الجهاد بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم يجلس للناس ، فيقدم عليه المتخلفون عن الغزو يعتذرون اليه ويحلفون عن الغزو يعتذرون اليه ويحلفون له ، فيقبل منهم علانيتهم ، ويستغفر لهم ، ويوكل سرائرهم الى الله مع علمه بأنهم مغموص عليهم في النفاق او ضعف الايمان .

أما المؤمنون الصادقون فلم يكن يتسامح معهم ، بل كان يعاقبهم أشد العقاب ، كما فعل مع الشاعر كعب ابن مالك الانصاري ، وصاحبيه مرارة بن ربيعة العامري ، وهلال بن أمية الواقفي الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، وكانوا من المؤمنين الصادقين ولم يكن

لهم عذر في التخلف ، فقد نهى الرسول (ص) المسلمين عن كلامهم وان يتجنبوهم ، وعزلوا عن أهلهم ، وظلوا على هذه الحالة خمسين يوما الى ان نزل قرآن في توبتهم قال : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، ان الله هو التواب الرحيم » . ولم يذكر أحد من المؤرخين أن رسول الله (ص) حاسب حسان يوما لتخلفه ، او عاقبه على الرغم من تخلفه عن مغازي رسول الله (ص) ، ولا يصح أبدا ان يكون الجبن عذراً مقبولاً لدى الرسول ، فقد فسر قوله تعالى « انفروا خفافا وثقالا » الخفيف : الشجاع ، الثقيل : الجبان . اذن لابد أن الرسول كان يسامحه لعذر مقبول ، وحجة صادقة غير الجبن ، كأن تكون عجزه البدني .

٦ – ان الجبن والايمان لايجتمعان في قلب رجل واحد ، فحيثما حل أحدهما طرد الآخر ، لان

المؤمن متيقن من أن الموت مصير كل حي «كل من عليها فان » وان الاجل محدد ، لا يتقدم ولا يتأخر « اذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ، «لكل اجل كتاب» وشعاره اذا حارب أن ينال أحدى الحسنين ، أما أن ينتصر فيعلي كلمة الله وينشر العدل والحق واما ان يقتل فيموت شهيدا ويدخل الجنة التي وعد المتقون ، فهو فائز في كلتا الحالتين .

وكذلك لا يمكن ان يجبن من كان هذا ايمانه وتلك عقيدته ، ولنا في سير أبطال تاريخنا العربي اكثر من دليل ناصع في هذا ، فقد كانوا يقعون على الموت فيفر منهم ، وكانوا يطلبون الموت فوهبت لهم الحياة الحرة الكريمة . وكان الجبن مصيبة يستعيذ منها المسلمون ، فقد كان رسول الله (ص) يدعو قائلا :

« أللهم اني أعوذ بك من الهم والحزن ، واعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » ومن يكون هذا دعاؤه لا يمكن أن يقبل من أصحابه ان يكونوا

جبناء فما بالنا بمن اختاره ناطقا باسمه .

ومعروف أن حسان كان مؤمنا صادق الايمان لم يغمزه أحد بنفاق او رقة في الدين ، وقد مرّ بنا قول ابن عباس والسيدة عائشة فيه ، ونضيف هنا ما روته عائشة قالت : سمعت رسول الله (ص) يقول عن حسان : لا يحبه الا مؤمن ولا يبغضه الا منافق .

٧ ـ أما العلة التي أشار اليها بعض المؤرخين ، وألمحت اليها في خلال حديثي ، والتي أقعدت حسان عن مشاركته في الحروب ، فقد ذكرها الاقدمون فقال الواقدي : كان أكحل حسان قد قطع ، فلم يكن يضرب بيده .

وقال ابن الكلبي : ان حسان بن ثابت كان لسناً شجاعا فأصابته علة أحدثت فيه الجبن ، فكان بعد ذلك لايقدر أن ينظر الى قتال ولا يشهده .

أما ابن عبدالبر الاندلسي فيقول : وقيل انما أصابه ذلك الجبن منذ ضربه صفوان بن المعطل بالسيف .

ومعروف أن حسان بن ثابت قد قال شعرا يعرض فيه بابن المعطل وبمن اسلم من العرب مـــن مضـر مطلعــه :

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا

وابن الفريعة أمسى بيضة البلد

فاعترضه صفوان ، فضربه بالسيف ثم قال :

تلق ذباب السيف عنــي فأنني

علام اذا هوجيت لست بشاعر

فوثب ثابت بن ليس بن الشماس على صفوان فجمع يديه الى عنقه بحبل ، ثم انطلق به الى دار بني الحارث بن الخزرج ، فلقيهُ عبدالله بن رواحة فقال : ما هذا ؟ اما أعجبك ضرب حسان بالسيف ! والله ما أراه الا قد قتله .

قال له عبدالله بن رواحة : هل علم رسول الله (ص) بشيء مما صنعت ؟ قال : لا والله . قال : لقد أخطأت .

ويؤكد هذا ما ذكره حسان في شعره قال :

أضـــر بجسمي مـر الدهـور

وخان قـــراع يدي الأكحـلُ

وقد كنت أشهـد وقع الحروب

ويحمرّ فـــي كفـي المنصـلُ

ان هذين البيتين أنصع دليل على عـدم صحـة اتهامه بالجبن فهل ينصف المؤرخون حسـان ؟ وهـل يضعه النقاد حيث وضع نفسه في طليعـــة المجاهدين الصادقين ؟

★ ★

المصادر :

١ ـ الاخبار الطوال ، أبو حنيفة الدينوري ـ مصر ١٩٦٠ .

٢ ـ الاستيعاب في معرفة الاصحاب . ابن عبدالبر الاندلسي ـ التجارية بمصر ١٩٣٩ .

٣ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ ابن الاثير ـ المطبعة الاسلامية ١٢٨٠ .

٤ ـ الاصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ التجارية بمصر ١٩٣٩ .

٥ ـ الاغاني ـ ابو الفرج الاصفهاني ـ طبعة ساسي القاهرة .

٦ ـ الامالي ـ ابو علي القالي ـ مركز الموسوعات ـ بيروت .

٧ ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ مكتبة المعارف ـ مصر .

٨ ـ تاريخ الرسل والملوك ـ الطبري ـ تحقيق أبو الفضل ابراهيم ـ القاهرة .

٩ ـ جمهرة نسب قريش ـ الزبير بن بكار ـ تحقيق محمود محمد شاكر ـ دار العروبة ـ القاهرة ،

١٠- ديوان حسان بن ثابت - شرح البرقوقي - التجارية مصر .
١١- ديوان عبدالله بن رواحة - د . وليد قصاب - دار العلوم ١٩٨٢ .
١٢- ديوان الامام علي - منشورات مكتبة النهضة بغداد .
١٣- ديوان كعب بن مالك - تحقيق د . سامي العاني - مكتبة النهضة - بغداد .
١٤- ديوان أبي محجن الثقفي - نشرة المنجد - دار الكتاب الجديد - بيروت .
١٥- السيرة النبوية - ابن هشام - تحقيق السقا وجماعته - القاهرة ١٩٥٥ .
١٦- شعراء اسلاميون - د . نوري القيسي - مكتبة النهضة - بيروت .
١٧- شعر الفتوح الاسلامية - النعمان القاضي - الدار القومية - مصر ١٩٦٥ .
١٨- شعر النابغة الجعدي - المكتب الاسلامي - بيروت .
١٩- العقد الفريد - ابن عبد ربه الاندلسي - طبعة لجنة التأليف والترجمة .
٢٠- عيون الأثر - ابن سيد الناس اليعمري - القدسي - القاهرة ١٩٥٦ .
٢١- فتوح البلدان - البلاذري - نشرة صلاح الدين المنجد .

٢٢ـ مروج الذهب ـ المسعودي ـ دار الاندلس ـ بيروت .
٢٣ـ معجم البلدان ـ ياقوت ـ دار صادر ـ بيروت ـ والطبعة الاوربية .
٢٤ـ معجم الشعراء ـ المرزباني ـ تحقيق فراج الحلبي ـ القاهرة ١٩٦٠ .

المحتويات

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
٩١ لسنة ١٩٩٢

٨١١ و ٢٠٧
ع ٢٩٩ العاني ، سامي مكي
نظرات في شعر صـدر الاسـلام / تأليف سامي
مكي العاني ـ بغداد : دار الشؤون الثقافية ، ١٩٩٠
ص ، ٢٢ سم
١ ـ الشعر العربي ـ تاريخ ـ صدر الاسلام
آ ٠ العناون

الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية
تتناول مختلف العلوم
والفنون والآداب

دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والاعلام